

الشيخ الأكبر  
عجى الدين بن العجمي  
سلطان العارفين

تأليف: عبد الحفيظ فرغلي على القرني

يتحدث هذا الكتاب - وهذه هي الطبعة الثانية منه - عن شخصية فريدة عاشت بين منتصفى القرنين السادس والسابع الهجريين - وبلغت أقصى ما يمكن أن يبلغه إنسان من الكمال الروحي والعلمي والخلقي .  
وقد ترك الشيخ الأكبر أثره القوي في حياة الناس وعقولهم بسلوكه الطيب وبما خلقه من مئات الكتب التي تشهد بسعة المعرفة وغزارة العلم وروعة المشاهدات والقيوضات التي أفاضها الله على قلبه  
ومن أهم هذه الكتب الفتوحات الملكية

## مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام  
على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .  
ويعد ..

فهذه سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفاضل ، الذين  
تركوا ثروة ضخمة من الآثار والأثر والأذواق ، ضمنها عددا لا يكاد  
يحصى من كتبه التي عدت عليها عوادي الزمان ، فما ضاع يعد  
اضعافا مضاعفة لما بقي منها .

هي سيرة الصوفي المرسى العظيم « محيي الدين بن العربي »  
الذي عاش في الفترة التي تجمع بين منتصف القرنين السادس  
والسابع الهجريين ، هذه الفترة التي كانت زاخرة بالأدب  
والتصوف ، في بيئة من أحصى بلاد العالم الإسلامي رقة وذوقا  
وأدبا وتصوفا ، هي بيئة الأندلس ، التي على رباهما تشا عامل  
التصوف العظيم ، ثم خُطت قدماء تذرع البلاد شرقا وغربا ،  
بحفا عن المعرفة ، وأرتبادا للحكمة .

هي سيرة « ابن عربي » الذي سطع نجمه في أفق الثقافة  
الإسلامية الصوفية حيا وميتا ، ووجد من الانتصار والخصوم من

يناصرون ويناونون ، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان ، وأثار  
ثائرة قوم وأعجاب آخرين ، وظلت كتبه الى ذلك الوقت متبعا فياضا  
وكنزا دقينا يهرع اليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح  
ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة .

هي سيرة ذلك البطل الذي أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما  
دلالتهما العظيمة .

أما اللقب الأول فهو « الشيخ الأكبر » وهذا اللقب لم يطلق  
عليه إلا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقومات القيادة  
الروحية ، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون  
حوله بالمئات في كل مكان يحل فيه ، يتحلقون حوله ويستمعون الى  
محاضراته ، وينصتون الى آرائه وأواقه في شعره ونثره .  
فيجدون في ذلك بلسمًا شافيًا لجراحهم ، ويعثا قويا لموات نفوسهم ،  
وحفزا صادقا لهممهم ، وأرواء لظما أرواحهم . وكانوا هم عند  
حسن ظنه بما أقادوا من تعاليمه ، وساروا على طريقه واستجابوا  
لصادق نصحه ، فشفيت نفوسهم ، وأطمانت قلوبهم ، وارتوت  
أرواحهم وانطلقوا يحلقون في فضاء الروح .

ولقد وضع « الشيخ الأكبر » مناهج تتناول الصوفي في جميع  
مراحل طريقه من لدن انبعاث الرغبة في نفسه ، ثم مضيه مریدا  
سالكًا حتى تتكشف أمامه الطريق ، فيتمكن من الوصول الى غايته  
بنجاح .

كما وضع مناهج للشيوخ أنفسهم يستأنسون بها في إرشادهم ،  
كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحترمون له  
قدوته ويحفظون له حقه وبذلك يزهر غرسه وينمو ثمره .

وكان هو نفسه - سلوكًا وتصرفًا وقولًا وعملًا وأدبًا وأخلاقًا -  
في الذروة العليا من الكمال الإنساني الذي بلغ به مراتب أهل

الفضل ، وجعل شيوخ عصره يجولونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة  
العظيمة والمزلة الرفيعة .

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب « الشيخ الأكبر » .

أما اللقب الثاني فهو « سلطان العارفين » وهو لقب يكاد  
يكون متلازمًا مع اللقب السابق ، فلم يستحق ابن عربي لقب  
« الشيخ الأكبر » إلا بعد أن تبوأ عرش المعرفة ، وأدرك من  
الأسرار ما عز على غيره ، واستطاع أن يشير الى حقائق تأهت  
في الطريق إليها العقول ، وتفرقت العزائم ، وأدلى بمعان رائعة  
وحكم بالغة ، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته .

ولقد شهد بذلك اعظم الصوفيين في عصره ، ومنهم أبو مدين  
في المغرب والسهوردي في بغداد ، وابن الفارض في مصر .

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب « سلطان العارفين » .

وقال عنه السهوردي : أنه بحر الحقائق .

وأدرك ابن الفارض روعة الفتوحات المكية التي كتبها ابن عربي  
فقال : أنها خير شرح لمنايته المشهورة « نظم السلوك » .

وهذه تقارير أن دلت على شيء فأنما تدل على ما وصل  
اليه الشيخ الأكبر من تائق ومقدرة .

ومن أجل ذلك أطلق عليه « سلطان العارفين » وهو جدير  
بهذا اللقب ، لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الطريق الصوفي  
الغاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات الا وأدلى فيها ببيان واف ،  
وعبارات رائعة نظما ونثرا . واتسعت معرفته فشملت غير  
العلوم الصوفية براءة ودقة وفهما وأداء .

هذه سيرة الشيخ الأكبر محبى الدين بن عربي سلطان  
العارفين ، التي نرجو أن تكون حافزا لنا ، ومناورا تهتدى به في  
حياتنا الجديدة . والله خير موفق ومعين .

عبد الحفيظ فرغلي القرني

## مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله مصطفىه من خلقه ومجتيبه من عبادته وعلى آله وصحابه ومن سار على نهجه واتبع طريقته واهتدى بهديه الى يوم الدين ،

ويعد ٠٠

فنحن بين يدي الطبعة الثانية من كتاب القطب الرباني سيدي محيي الدين بن العربي - رضي الله عنه - وقد صدرت الطبعة الأولى منه في سبتمبر عام ١٩٦٨ م في سلسلة أعلام العرب .

والإمام محيي الدين بن العربي جدير بأن تكتب عنه آلاف الصفحات وتصدر عنه مئات الكتب والمجلدات ، فقد شغلت حياته وأفكاره ومؤلفاته الناس عبر القرون من لدن القرن السابع الهجري حتى هذا القرن الخامس عشر الذي تعيش فيه ، وأغلب الظن أنه سيظل يشغل الناس الى مالا نهاية ، فانه من الذين كتب الله لهم الخلود بسيرهم الزكية وأعمالهم المرضية .

ولقد شهدنا في مصر في نهاية القرن الرابع عشر لونا من هذه الشواغل التي اثارها حياة الشيخ الأكبر ومؤلفاته ، تظهر فيما

فوجدنا به من تدخل سافر يحاول أن يجبر على حرية الفكر ويحول بين الناس والعرفة ويقضى على أكبر مؤلفات ابن عربي « الفتوحات المكية » ذلك أن الهيئة المصرية العامة للكتاب قد نشرت منه أجزاء في طبعة أنيقة محققة تحقيقاً دقيقاً بقلم الدكتور عثمان يحيى . ومراجعة وتصدير الدكتور إبراهيم مذكور وكلاهما علم من أعلام الفكر والعلم والثقافة ، وبرعاية المجلس الأعلى للفنون والآداب الاجتماعية في مصر ، وبالتعاون مع معهد الدراسات العليا في السوربون . ويعني ذلك كله الاعتراف بأهمية كتاب الفتوحات المكية وبأنه يمثل خلاصة المعارف الصوفية والفكرية في الإسلام وقد نبه الدكتور المحقق إلى ذلك في صدر الكتاب .

فبعد أن أصدرت الهيئة من هذا السفر الجليل عدة أجزاء أدنا بنا نسمع أصواتاً تطالب بإيقاف صدور الكتاب وجميع ما صدر منه من الأسواق ، متذرة بحجة وأهمية أن طبع هذا الكتاب يعد ترفاً علمياً وغيره من أمهات الكتب السليمة في موضوعها ومنطلقها أجدى بالرعاية والاهتمام وبأن بعض العلماء المسلمين أدانوا كتب ابن عربي فمن أجل هذه الإدانة يجب أن يوقف تراث ابن عربي .

ولقد ثارت ضجة صاحبة حول هذا الأمر شاركت الأقاليم الفكرية والأدبية فيها ، ومما يحد لكثير من هذه الأقاليم أنها وقفت وقفة موضوعية مدافعة عن هذا الإمام الكبير وسفره الجليل ، متوهمة بضرورة حرية الفكر لأن هذه الحرية هي التي تمكن للعقل من أن يأخذ حقه الكامل في البحث والدراسة والاستفادة ، ولن يقهر الفكر بالحجر أبداً مهما حاول المتعصبون أن يفرضوا سلطانهم ويحولوا بين الإنسان وحقه في التزود من المعرفة الإنسانية والدينية ، ومن أطرف ما جاء في ذلك قول بعض الأدباء المفكرين : (١) ومن العجيب حقاً أن ابن عربي قد تعرض للاغتتيال في عصر منذ سبعة

(١) هو الأستاذ أنيس منصور في الأهرام ١٩٧٩/٢/٤ .

قرون فهل نهنيء أنفسنا نحن المصريين على هذا الإصرار على قتل ابن عربي حياً أو ميتاً ؟ وإذا كانت هناك نصيحة لأحد في هذا الموقف الأليم فأنني أقترح أن يشتري كتاباً للإمام السبوطي في دفاعه عن هذا الفيلسوف المتصوف ، الكتاب بعنوان تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي .

وكتبت حينذاك رداً على قرار المصادرة لم يتح له أن ينشر قلت فيه بعنوان « كل ممنوع مرغوب » : كان لي شرف الكتابة عن الشيخ الأكبر في سلسلة أعلام العرب ، وقد دفعتني إلى الكتابة عنه منذ أكثر من عشر سنوات ما دفع بخيري من الإعجاب الشديد بشخصية ابن عربي الفريدة بين رجال التصوف الذين سجلت عنهم أروع الصفحات ، وانفرد هو من بين هؤلاء بلقيين لم يمنحهما اعتباطاً هما ( الشيخ الأكبر ، وسليمان العارفين ) وقلت : ويكفي ابن عربي فخراً أن يتوفر على دراسته ودراسة آثاره الخات من الغربيين والمستشرقين الذين راعهم هذا النتاج الضخم من مؤلفاته الخاصة بالدرر الفريدة والتي أثارت الطريق أمام كثير منهم لاعتناق الإسلام ، ومن بين الذين اعتنوا بدراسته المستشرق الأسباني أسين بلاثيوس الذي قال عن الفتوحات :

إن كتاب الفتوحات يعد كنزاً دفيناً ، والمستشرق الألماني يروكلمان الذي أورد ثبناً كاملاً لمؤلفاته في موسوعته الكبرى : تاريخ الأدب العربي .

وفي دار الكتب المصرية عام ١٩٦٨ التقيت في قاعة المخطوطات بعالم الماني معلى بدراسة ابن عربي وساعدني في ترجمة هذا الثبت الذي ضمته كتابي عن ابن عربي ولم يكن الجزء الذي يتضمن هذا الثبت مترجماً إلى العربية وكان النقاشي بهذا العالم مصادفة اعتبرتها توفيقاً من الله ونفحة من نفحات ابن عربي وعلامة من علامات التيسير في انمام هذا البحث بحمد الله

والآن فلنتساءل : هل مصادرة كتاب تمنع تداوله ؟ انهم يقولون كل ممنوع مرغوب . وبناء على هذا القول فقد اغرى الناس بسبب مصادرة كتاب «الفتوحات» بالاقبال على فكر ابن عربي وتبعية مصادره والاطلاع عليها في أي مكان ، ولئن صودر الكتاب في مصر فهل صودرت المسافرات وتيسرت وسائل الاتصال والانتقال حتى أصبح من الممكن الوصول الى أي هدف بيسر جهد وأقصر وقت ؟ إن مصادرة الفكر هي أقسى ما تبثلي به الأمم في عصورها وليس هناك أمة مستتيرة تخشى الكلمة وإنما عليها أن تقارعها بالحجة والبرهان وهذا أساس من أسس الإسلام الذي دعا الى مجادلة غير المسلمين بالتي هي أحسن ، ولم يدع الى مصادرة حججهم . فما باله إذا كانت هذه الكلمة لا تبطن كفرا ولا تظهر تكرا ، ولكنها ربما تحتاج فقط الى شرح وتوضيح وبيان لأن صاحبها قصد الى غموضها صونا للأسرار ؟

ليس من العجيب أن يثور المفكرون الأحرار على قرار مصادرة كتاب الفتوحات سواء منهم من يقرأ التصوف ومن لم يقرأه لأن المحرمات الفكرية كما يقول بعض الأدباء أخطر ما يواجه حياتنا الفكرية والثقافية ، فإذا ما صودر كتاب بلغ من العمر مئات السنين وطبعت منه آلاف النسخ وترجم الى اللغات العالمية فماذا نحن فاعلون إذا حاول واحد منا أن يستخدم عقله أو أن يسلك مسلك الاجتهاد ؟

لقد اشتركت عشرات الأقلام الأصلية الحرة في مناقشة هذه القضية ، وكان من العجيب حقاً ألا تفعل ذلك ، حتى أجبرت هذا القرار الجائر على التراجع واستأنفت الهيئة إصدار الأجزاء الباقية من هذا الكتاب الذي لم تمتد قامة حتى الآن لتناول صاحبه في فكره

ومعرفته وصفاء روحه ، والأمل كبير أن شاء الله شي أن ثرى بقبه جزائه .

وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب جهداً متواضعاً في انقاء الضوء حول هذا الرجل العظيم ومؤلفه الخطير «الفتوحات» المكية معترفاً بأنه جهد المثل ومحاولة العاجز ، وحسبني من ذلك أن يجعل الله هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيب به الطريق الى معرفته أنه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

## البيئة والعصر

كانت الأندلس هي الموطن الأصلي لابن عربي ، ففيها ولد وعاش ما يقرب من أربعين سنة من حياته العامرة الزاخرة الخصبة .

والأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة « إيبيريا » التي كانت اقليما رومانيا مزهرا (١) .

وكان لموقع الأندلس الجغرافي الممتاز أثر كبير في خصوبة تربتها واعتدال جوها وحنن مناخها ، مما كان سببا في صحة اجسام أهلها ، وقوة جناتهم ، وسعة ادراكهم وخصوبة خيالهم وسرعة خاطريهم وشدة ذكائهم ، مما دعا « لسان الدين الخطيب » أحد وزرائها الأعلام الى وصفها بقوله : « خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريح ، وغسق المسقيا ، ولذادة الأقوات ، وقراءة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وأبيضاض الوان الاتساع ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة

(١) دائرة معارف الشعب مادة « أندلس » .

الطباع ، ونفوذ الادراك . واحكام التمدن والاعتماد بما حصره الكثير من الاقطار مما سواها ، (١) .

ويقول أبو عامر السلمي عن اقليم الأندلس : « هو خير الأقاليم وأعدلها هواءا وترابا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء ، وحيوانا ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم وخير الأمور أوسطها » (٢) .

وكذلك قول أبي عبيد البكري عن الأندلس : « الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها ، مندية في عطرها ونكاتها ، أهوازية في عظم جبايتها - صينية في جواهر معادنها ، عدنية في مواقع سواحلها » .

تلك هي الأندلس التي افتتحها المسلمون في سنة ٩٢ هـ بقيادة طارق بن زياد ، وظلت تحت حكم الاسلام زهاء ثمانية قرون ، ازدهرت في خلالها الحضارة الاسلامية ازدهارا عظيما ، وكانت مركز اشعاع امد العالم العربي بالعلم والتقدم ، واثار امامه الطريق الى رسم مستقبل علمي مجيد ، وانطلقت من آفاق الأندلس اشعاعات مضبوطة في شتى العلوم والمعارف والفنون ، مما جعلها تنافس شقيقاتها في المشرق علما وثقافة وتلقا وازدهارا .

ونبغ في ربوعها اعلام افاضل دانت لهم الحياة ، واحنت امامهم قامتها الأيام اجلالا واعزازا .

واشتهرت في الأندلس مدن كانت لها سوابق وعزايا في تلك الأمور المتقدمة .

(١) نفع الطب - ١ ص ٢٥٤ مطبوعات دار المأمون .  
(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

من بين هذه المدن « مرسية » .

وتقع « مرسية » على وادي شقورة قرب مصبها ، وهو تسميم نهر الوادي الجديد الكبير .

وهذه المدينة كانت حاضرة شـرق الأندلس في العصر الاسلامي ، وهي مدينة اسلامية محدثة ، أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ .

وازدهرت « مرسية » في عصر الخلافة وعمرت ، واصبحت من حواضر الأندلس الكبرى ، حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة وتمزقت وحدة الأندلس .

وتعرضت « مرسية » لحكومات متعاقبة على اثر ذلك ، حتى آلت الى المرابطين ثم الموحدين ثم استولى عليها ملك قشتالة في سنة ٦٤١ هـ .

وكانت « مرسية » بلد العلم والادب ، وقد وفد من علمائها عدد كبير الى المشرق ، وعلى الأخص مصر ، ومن بينهم أبو عبد الله محمد بن يوسف المرسى المتخصص في الفقه والكلام ، ومعتهم الشيخ الزاهد أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلي (١) .

ومعتهم الفقيه الفصيح الجليل العالم الورع عبد الحق بن سبعين الذي ذاع صيته وكثر أشياعه وتعددت مصنفاته (٢) .

ومن هذه المدن « اشبيلية » .

وتقع هذه المدينة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير قرب مصبها ، في خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحريا في

(١) راجع دائرة معارف الشعب مادة الدلس .

(٢) نفع الطب ج ٧ ص ١٨٨ .



جنوب اسبانيا . ويتميز هذا النهر بشدة صعوده الى فيه . حتى انه ليصل الى اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول الشاعر ابن سفر :

شق النسيم عليه جيب قميصه

فانساب في شطبيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها

هزا فحسم من الحياء ازاره<sup>(١)</sup>

وتتوسط « اشبيلية » « سبلا فسيحا » وكانت زمن المسلمين مدينة عامرة ، بها أسواق قائمة وتجارات رائجة ، وتمتعنت - ولا سيما في عهد بني امية - بازدهار شامل في حياتها ، واقام فيها الأمراء المنشآت العظيمة ، وشهدت على تعاقب الولاة تقدما لم تشهده من قبل لا في عصر الرومان ، ولا في عصر القوط ، ووصل بها الامر الى ان أصبحت أعظم مدن اسبانيا الاسلامية بعد أن تخلت لها قرطبة عن الزعامة .

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع « اشبيلية » وما كانت تنفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية ، وكانت - على حد تعبيرهم - عروس بلاد الأندلس وقاعدتها ، وبرع في ظلالها كثير من الأدباء والعلماء والفنانين<sup>(٢)</sup> .

تلك هي الأندلس ، وفي هاتين المدينتين منها ولد « الشيخ الأكبر » وعاش الشطر الأول من حياته ، في تلك الظلال الياسقة من العلم والعرفان .

وكانت البيئة العربية في ذلك الوقت الذي نشأ فيه « سلطان

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) «أثر معارف الشعب مادة » أندلس » .

العارفين » بيئة مهيأة خصبة لازدهار العلوم والمعارف ، وأدى التناقض الشديد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين في المشرق والمغرب الى ظهور كثير من العلماء المبرزين في شتى أنواع العلم والمعرفة ، وبخاصة في التصوف الذي اعتدت قروعه وزكت أصوله واتسعت معارفه ، ووصل الى أقصى ما يمكن أن يصل اليه من نمو وازدهار ، ودان به كثير من العلماء الأجلاء الذين رسخت اقدامهم ومضوا في طريقهم ينتشرون الهدى والنور من حولهم .

كان عصر « ابن عربي » عصرًا ذهبيًا في التصوف ، وشهد مشرق كثير من فحول من أمثال المشهورين البغدادي ، والشاذلي ، والدسوقي ، والبدوي ، وعمر بن الفارض ، وجلال الدين الرومي ، وعفيف الدين التلمساني ، وأبي الحسن الصباغ ، وأبي العباس المرسى وأبي العباس الخزرجي الأندلسي ، وعبد الحق بن سبعين ، وأبي مدين المغربي ، وأبي الحجاج الأقصري ، وكثير غيرهم عمرت بهم البلاد الاسلامية في شرقها وغربها .

وقد نضج التصوف نضجًا كبيرًا ، وخطا على يد أربابه خطوات قساحا ، وظهرت فيه الأنواع المختلفة التي تمثل اتجاهات الصوفية في ذلك العصر .

وكان ذلك ثمرة من ثمار النضج الروحي والفكري الذي ظهر في خلال ذلك العصر ، والذي أدت اليه حركة المد العلمية الواسعة التي شملت جميع أجزاء الدولة الاسلامية المتعددة الأطراف . وكان حظ الأندلس من العلوم والآداب كبيرًا للغاية ، فتقدمت تقدما ملموسا منذ العهد الأموي ، واشتغل منهم كثيرون

في الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية ، ونيفوا في الفلسفة والتصوف والشعر (١) .

ويوجد مئات من العلماء الأعلام الذين كان لهم اثر مرموق في الرقي الفكري والعقلي والروحي ، ذكرتهم كتب التاريخ والطبقات ، وعلى ايديهم تخرج الآلاف من الطلاب الذين زخرت بهم المدارس والجامعات ، وامتلأت بهم المدن ، وامتدت بهم أعمال الأمة العربية والإسلامية ، وارتبطت بهم أوصالها ، حيث اتسعت حركة الهجرة بين شرقها وغربها .

وقد ترجم ، المفرد ، في كتابه نفع الطيب لكثير من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا من الأندلس الى المشرق ، ومن بينهم الكثير من الصوفية .

وعلى قدر ما كانت ترقى فيه الأندلس من حلال الترف والحضارة والنعمة ، مما أدى الى انصراف كثير من المترفين الى المتعة واللذة واستغراقهم في اللهو واللعب كان هناك التصوف الذي لعب دورا كبيرا في حياة بعض الأفراد ، ووقف يلوح بعصاه ليهذب من ضراوة النفوس ويكبح من جماع الشهوات .

وكان التصوف قد تطور في اطواره المختلفة التي نقلته من مجرد نزعة تقشفية الى التغلغل في صميم الكون والنفس الانسانية واكتشاف أعماق الحياة ، وأصبح التصوف في هذا العصر يمثل ناحيتين هامتين ، أحدهما الجانب العملي ، ويقصد به ضروب المجاهدة والمكابدة وما تدعوان اليه من تهذيب خلقى ، وما تكلفانه من سلوك الوان خاصة في الرياضة الروحية كالصوم والعزلة والسهر والصمت والفكر والنباح والذكر وغير ذلك .

(١) دائرة معارف الشعب مادة الفلاس من ١٩٧ .

وثانيتها الجانب النظري الذي تثمره الناحية العملية من معرفة لواجب الوجود وتمييز عما يشاهده العارف وعما يحس به في أثناء سيره في طريقه من احساس القرب أو المشاهدة أو الشوق أو الانس أو الوجد أو غير ذلك .

واختلفت تعبيرات الصوفية بين هاتين الناحيتين اختلفا اثار كثيرا من النقاش والجدال ، بين مؤيد ومعارض ومدافع ومهاجم ، وكونت هذه الحالة حركة فكرية كان لزاما أن تشغل عقول العلماء والمفكرين .

في هذه الظروف نشأ ابن عربي الشيخ الأكبر ، الذي اثار اكبر ضجة في تاريخ التصوف ، وترك من خلفه ثروة ضخمة من المعارف الصوفية ، وكان لأرائه الجريئة صدى عميق ظل الى وقت طويل يثير ثائرة المعارضين واعجاب المؤيدين .

## نسبه ومولده ونشأته

### أسرته :

ولد ابن عريى في أسرة عريقة تعتر بأصلها العربى السامق . فهو من نسل حاتم بن عبد الله الطائي المتوفى سنة ٥٧٨ م ، وهو الجواد الفارس المشهور بكرم الأخلاق ، وكان مظهرًا ، إذا قاتل غلب ، وإذا أسر أطلق ، وإذا غنم أعطى ، وإذا سئل أجاب . ضرب المثل بجوده حتى لقد رويت عنه الأخبار ، وتسبحت حوله القصص في الآداب العربية والفارسية والتركية والهندو-مستانية . وله ديوان شعر يدور حول الجود والخلق الكريم<sup>(١)</sup> .

وورث أولاده وأحفاده هذه الصفات عنه ، واعتزوا بها وحرسوا عليها . وكانت مشار فخرا لهم ، ولم ينس ابن عريى - وهو شاعر مجيد - التقنى بهذه الصفات الكريمة التي ورثها أياها نسبه العظيم ، فقال في إحدى قصائده :

إذا قل سبيلى لم تقل عزائلى  
قللى عزيمات شاحذات صوارمى

(١) نفع الطيب - ج ٧ ص ١٨٨ .

والأفضل عنا القنا هل وقت لنا  
واسيافنا يوما بقدر عزائمي  
لنا الجود ، اذ كنا سلاله حاتم  
وما زال منذ قلده في تمائمي  
وقال في قصيدة أخرى :

لنا همة ان الثريا لدونها  
نعم ، ولنا فوق السماكين منزل  
تقدمت سبقا في المكارم والعلا  
وفي كل ما ينكى العدا انا اول  
ولم الف صمما بما بقدر عزائمي  
ولو جمعوا الاسياف عزمي اول  
كذلك جودي لا يفي الغيث والثرى  
اذا كان اموالا به حين ابدل  
انا العربي الحاتمي اخو الندى  
لنا في العلا المجد القديم المؤئل .

ولأسرة الطائي سابقة في الاسلام جديرة بالتسجيل ، وهي  
ان عددا الطائي بن حاتم وكان يعرف بالجواد ابن الجواد ، وقد  
على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة سبع ، وأسلم  
وحسن اسلامه ، ونزع له النبي صلى الله عليه وسلم وسادة  
كانت تحته فلقاها له حتى جلس عليها ، ولما ارتدت العرب ثبت  
عدى وقومه على الاسلام ، وكان اول صدقة قدم بها على ابي بكر  
صدقة عدى وقومه ، وشهد فتح المدين ، وشهد مع سيدنا على  
جرويه ، ولقنت عينه يوم الجمل وتوفي سنة ٦٨ هـ عن نحو  
١٢٠ سنة (١) .

(١) نفع الطيب - ج ٧ ص ٦٢ هامش .

### تسببه :

وتسبب ابن عربي كما ورد في اكثر من مرجع هو : ابي بكر  
محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمي  
الطائي الأندلسي (١) . من ولد عبد الله بن حاتم اخي عدى بن حاتم  
الفقيه الصوفي المشهور الظاهري (٢) .

وتضيف دائرة المعارف الاسلامية انه كان يعرف في الأندلس  
« بابت سراقه » ولعلها استندت في ذلك الى ما جاء في نفع الطيب  
نقلا عن كتاب « عنوان الدراية في تاريخ بجاية » ولكن الواقع ان  
الذي يعرف بابت سراقه ليس هو الشيخ الاكبر ، ولكنه الامام  
محيي الدين ابي بكر محمد بن محمد بن ابراهيم الأنصاري ،  
شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، ولد سنة ٥٩٢ هـ وله  
مؤلفات في التصوف ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم ،  
وتوفي سنة ٦٢٢ هـ (٣) ، وكان أحد الملازمين لدروس سيدي  
ابي الحسن الشاذلي في مصر (٤) . وقد ترجم له صاحب كتاب  
« المغرب في حلى المغرب » ونكر انه : ابي بكر محمد بن ابي عبد الله  
محمد بن سراقه ، وأئند له شعرا (٥) .

وكان الشيخ الاكبر يطلق عليه في الأندلس : « ابن العربي »  
بالألف واللام ، اما في المشرق فكانوا يطلقون عليه « ابن عربي »

(١) دائرة المعارف الاسلامية - دائرة معارف البستاني - شذرات الذهب  
- ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) نفع الطيب - ج ٧ ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٤) ابي الحسن الشاذلي لعبد الطيب محمود ص ٤٣ .

(٥) المغرب في حلى المغرب - ج ٢ ص ٣٨٨ .

من غير أداة التعريف : تمييزاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي  
المعافري . قاضي قضاة ، اشبيلية ، وهو أحد علماء الأندلس  
المشهورين الراحلين إلى المشرق . ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة ،  
وتوفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . قبل مولد الشيخ الأكبر  
بسبعة عشر عاماً تقريباً .

#### مولده :

وقد اجمعت المصادر على أن ابن عربي الشيخ الأكبر ولد  
يوم الاثنين سابع عشر من رمضان المعظم سنة ستين وخمسمائة  
هجرية ، في مدينة « مرسية » بالأندلس ، من أبوين كريمي المحدث ،  
وفي ظل أسرة عريقة غنية مشهورة بالتقوى والصلاح .

أما أبوه علي بن محمد فقد كان رجلاً صالحاً مواظباً على  
تلاوة القرآن الكريم ، وله مع سورة « يس » صحيفة خاصة .  
ويبدو أنه كان مباركا ، بدليل أنه قد تنبأ باليوم الذي سيموت  
فيه فكان كما تنبأ ، ويحدث ابن عربي عن الكرامات التي صاحبها  
أيام يوم وفاته وعن الاشراف الذي كسا وجهه وغشى جسمه حتى  
أضاء ما حوله فيقول في كتاب « الفتوحات المكية » : « وكان  
قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرني بموته ، وأنه يموت يوم  
الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته ، وكان مريضاً شديد المرض  
استوى قاعداً غير مستند ، وقال لي : يا ولدي ، اليوم يكون  
الرحيل واللقاء فقلت : كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك  
في لقاءك ، ففرح بذلك ، وقال لي : جزاك الله يا ولدي عن خير ،  
فكل ما كنت اسمعك تقوله ولا أعرفه ، وربما كنت أنكر بعضه هوذا  
أنا أشهد . ثم ظهرت على جبينه لعة بيضاء تخالف لون جسده  
من غير سوء . لها نور يتلألأ ، تشعر بها الوالد ، ثم إن تلك اللعة  
انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه ، فقبلت يده وودعته

وأخرجت من عنده وقتلت له : أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى  
أن ياتيني نعيك ، فقال لي : رح ولا تترك أحداً يدخل على ، وجمع  
أهله وبناته ، فلما جاء الظهر جاءني نعيه فجلت إليه فوجدته على  
حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه ،  
وكان له مشهد عظيم » (١) .

وأما أمه فاسمها « نور » وهي امرأة صالحة كانت تحث  
دائماً على ارتياد طريق الصلاح ، وإتباع سبيل الهدى . ولم تجزع  
حينما ترك ابنها الدنيا وسلك طريق الزهادة والتقوى . وحينما  
ألزم نفسه خدمة العارفة بالله . فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي ،  
ياشيبيلية كانت أمه تزوره عندها ، فتقوّل لها فاطمة : يا نور  
هذا ولدي وهو أبوك ، قبريه ولا تعقيه . فلا تجد في نفسها  
غشاضة مما تسمع ، وكانت تتلقاه بقبول حسن .

أما أخواله فعنهم الأعلام الذين سلكوا طريق التصوف ،  
وبلغوا منه مبلغاً عظيماً ، وقد كان أحدهم وهو « يحيى بن يغان »  
ملكاً على مدينة تلمسان وكان في زمنه رجل نقيه زاهد مقبّل .  
قد انقطع في مسجد يعبد الله فيه .

وبينما كان هذا العابد سائراً في طريقه بين مدينتي تلمسان  
واقادير ، إذ لقيه « يحيى بن يغان » وقد أحاط به خدمه وحشمه .  
فصاح عن هذا الزاهد ، فقالوا له : هو أبو عبد الله التونسي  
عابد وقته ، فوقف بجواره ، وسلم على الشيخ ، فرد عليه الشيخ  
السلام ، ثم قال الملك - وكان يرتدي ثياباً فاخرة - للشيخ :  
يا شيخ ، هل يجوز لي أن أصلي في هذه الملابس التي ارتديها ؟

فضحك الشيخ ، فقال له الملك : هم تضحك ؟

(١) ابن عربي حياته وملعبه ترجمة بيد الرحمن بدوي .

فأجاب الشيخ : من سخر عقلك وجهك بنفسك ، مالك تشبيه عندى الا بالكلب ، يتمرغ في دم الحيفة وأكلها وقذارتها ، فإذا جاء يبول يرفغ رجله حتى لا يصيبه البول ، وأنت وعاء ملئ حراما وتسال عن الثياب ، ومظالم العباد في عنقك !!

فبكى الملك « يحيى بن يغان » خال ابن عربى ، وخرج عن ملكه من حينه ، ولزم خدمة الشيخ ، فالزمه الشيخ بأن يحتلب ، فكان يحمل الحطب على رأسه ويمضى به الى السوق ليبيعه ، فيقتات منه ويتصدق بالباقي ، وظل على ذلك حتى مات ودفن بجوار الشيخ .

وكان الناس اذا جاءوا يقصدون الشيخ للتبرك ، ويطلبون منه الدعاء يقول لهم : التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان ، فإنه ملك وزهد ، ولو ابتليت بما ابتلى من الملك ربما لم ازهد<sup>(١)</sup> .

وكان من أخواله أيضا « أبو مسلم الخولاني » الذي كان له في الطريق الصوفي مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الفحول من الرجال .

أما أعمامه فكان منهم ، عبد الله بن محمد ، الذي كانت له قدم ثابتة في الطريق ووصل الى درجة من درجات كبار الصوفية ، وهى درجة جلاء البصيرة ومعرفة بواطن الأمور .

هذه عمومته القريبة ، أما عمومته البعيدة فقد مر بنا قول « المقرئ » أاتف عنه : أنه من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى ابن حاتم الفقيه الصوفي المشهور .

في هذا الظل الوارف من الصلاح والتقوى نشأ ابن عربى ، فكان جديرا بأن يكون ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة ، حتى

إذا اكتمل شبابه اكتملت معه الهالة المشرقة الوضاعة من حوله بزواجه من فتاة تقيّة صالحة ، هى « مريم » ابنة محمد بن عبدون ابن عبد الرحمن البجاشى ، التى كان لها أثر كبير في دفعه الى طريق الهدى والنور .

وكان مولد ابن عربى في مدينة « مرسية » وكان يحكمها في ذلك الوقت « محمد بن مردنيش » ولم تلبث جيوش الموحدين أن زحفت الى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها ، قاعد لهم « ابن مردنيش » جيشا وخرج لقتالهم ، وتبادل القريقتان النصر والهزيمة ، حتى انتهى أمر « ابن مردنيش » الى الادبار لهزم في ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ . وابن عربى في ذلك الوقت عمره شهور ، وحاصر الموحدون « مرسية » فترة من الزمن ثم أقطعوا عنها ، ثم عاودوا هجومهم عليها مرة أخرى ، وشددوا الحصار ، وأخيرا استسلم « بنو مردنيش » واثروا الطاعة « لأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى » سنة ٥٦٧ هـ<sup>(٢)</sup> .

وقد أجمع المؤرخون على أن « ابن عربى » ولد في « مرسية » باستثناء « ابن الأبار » فبما نقله عنه صاحب نفع الطبيب ، من أنه من أهل « المرية »<sup>(٣)</sup> ، ولكن يبدو أن « المرية » محرفة عن « مرسية » وقد أثبت ذلك فعلا الأستاذ أحمد يوسف نجاشى في هامش الصفحة التى ذكر فيها ذلك .

وكانت طفولة ابن عربى الأولى في « مرسية » في ظل ذلك الصراع الدائر حول المدينة ، ولكن ذلك لم يكن ليشغل أسرته عن اعداد هذا الطفل لمستقبله ، فدفعوه الى من يأخذ بيده الى التهذيب لحفظ القرآن الكريم .

(١) دائرة معارف الشعب مادة مرسية من ٤٨ .

(٢) نفع الطبيب ج ١ ص ٩٥ .

(٣) ابن عربى ص ٦٠ .

## أقباله على طلب العلم - شيوخه في طلبه

في سنة ثمان وستين وخمسمائة تحولت الأسرة إلى «أشبيلية»  
وهناك أقبل «ابن عربي» على التعلم ، وبدأ بعلوم القرآن الكريم .

وكان استاذة في علم القراءات «أبو بكر محمد بن خلف اللطفي  
الأشبيلي» وهو من أكبر المعرفين بالقراءات والعربية ، وكان مقدما  
قيهما ، وله مؤلفات نافعة في اللغة والقراءات والتفسير ، توفي  
سنة ٥٨٦ هـ .

قرأ «ابن عربي» القرآن الكريم بالسبع على هذا الأستاذ  
الفاضل ، وانتفع في ذلك أيضا بكتاب «الكافي في القراءات السبع»  
عن طريق ابن مؤلفه : أبي الحسن بن محمد بن شريح الرعييني ،  
الذي كان يحدثه بهذا الكتاب عن أبيه .

وانتفع بهذا الكتاب أيضا عن طريق شيخ آخر هو : أبو القاسم  
عبد الرحمن بن محمد القرطبي المعروف بالشراط ، وكان عالما  
بالقراءات وطرقها بصيرا باللغة العربية وأدائها ، له حظ من قرص  
الشعر فاضلا زاهدا ورعا ، وتوفي سنة ٥٨٦ هـ .

وقرأ «ابن عربي» كتاب «التيسير لأبي عمرو الداني» على  
شيخ جليل هو «أبو بكر محمد بن أبي حميرة» وكان والد هذا

الشيخ من أهل الحفظ والعلم والمعرفة . وكان شديداً في الحق ، وتلقى ابنه أبو بكر عنه علومه ومعرفته وفهمه وحذقه .

وكان من شيوخه ، ابن عربي ، في الحديث والفقه والأدب .

أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن زرقون المتوفى سنة ٥٨٦ هـ . كان أحد سداة الرجال حافظاً للفقه مبرزاً فيه ، مشهوراً له بالبراعة في الأدب والمشاركة في قرص الشعر وحسن التصرف في طرق النظم والنثر ، ولي القضاء ، وله مؤلفات نافعة .

ومن شيوخه أيضاً : أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الأشبيلي ، وكان فقيهاً حافظاً عالماً بالحديث وعلمه ، عارفاً بالرجال موصوفاً بالخير والصلاح والزهد والورع ادبياً شاعراً ، توفي سنة ٥٨١ هـ .

كذلك كان من شيوخه في الحديث والفقه : أبو بكر

محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجدي ، وكان في وقته فقيهاً الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع ، لا يدانيه أحد في ذلك ولا يجاريه ، واليه كانت رئاسة بلده والانتقاد بها ، ثم ورثه عقبه من بعده ، وكان فصيحاً خطيباً حقواً ، وقد جل قدره في « أشبيلية » وكان يعرف بالحافظ لكونه أعجوبة في سرعة ما يحفظه ، وبلغ به العلم إلى مرتبة عالية بحيث أن يوسف بن عبد المؤمن كان ينزل له عن نفسه إكراماً له . توفي سنة ٥٨٦ هـ (١) .

ومن شيوخه أيضاً ، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي ، وكان له تحقق بالعلوم على تفاريقها ، وأخذ منها في كل فن ، وكان من أعلم أهل الأندلس بمذهب مالك ، وهو من أهل بيت عريق في العلم توفي سنة ٥٩٧ هـ .

ومن شيوخه ، أبو القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد ابن أبي الفضل الخرستائي ، قاضي القضاة ، ولد سنة ٥٢٠ هـ ، وكان فاضلاً فقيهاً شافعياً صالحاً عابداً عدلاً ، وتوفي سنة ٦١٤ هـ .

(١) المغرب في حلى المغرب - ج ١ ص ٢٤٢ .

وسمع الحديث في « قرطبة » من « أبي القاسم خلف بن عبد الملك ابن مسعود بن بشكوال » . وكان من علماء الأندلس ، وله التصانيف المفيدة ، ولد في ذي الحجة سنة ٤٩٤ هـ ، وتوفي في رمضان سنة ٥٧٨ هـ .

وقرأ ابن عربي كتباً كثيرة في مختلف العلوم والفنون ومن بينها كتب « ابن حزم » حدث عن نفسه قائلًا في إحدى رسائله إلى الملك المظفر غازي :

ومن شيوخنا الأندلسيين « أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبد الله الأشبيلي » رحمه الله تعالى ، حدثني بجميع مصنّفاته في الحديث ، وعين لي من أسعائها : تلقين المهتدي ، والأحكام الكبرى والوسطى والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ونظمه ونثره ، وحدثني بكتب الإمام « أبي محمد بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه » (١) .

و « ابن حزم » كان حجة ، وأمام وقته ، ومن كتبه التي يشير إليها « ابن عربي » ويغلب أنه قرأها : كتاب الإيضاح لأفهم الخصال ، لجمع شرائط الإسلام في الواجب والحلال والحرام ، وموضوعه فقه الحديث ، ومنها : الأحكام لأصول الأحكام ، والفصل بين الأهداء والنحل ، والأجماع ومسائله على أبواب الفقه ، ومنها كتاب مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض (٢) .

عن هؤلاء الشيوخ السابقين وكثير غيرهم تلقى « ابن عربي » علوم القرآن والحديث والفقه والأدب واللغة والأصول وغيرها . وكان لتوجيهاتهم - لاسيما الأدباء منهم - أثر كبير في صقل

(١) نفع الطبيب - ج ٧ ص ٩٩ .

(٢) دائرة معارف البستاني مادة « ابن حزم » .



موهبة الأدبية والشعرية التي أعان عليها طبعه العربي ، واستعداده الموروث من أسرة عريقة في الشعر والأدب ونشأته في هذه البيئة الأندلسية ذات الطبيعة الساحرة التي تهذب الوجدان وتثير العاطفة وترقق الشعور وتنمي الخيال .

يقول « أسين بلايوس » : « ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل مع أهله إلى « اشبيلية » بعد أن خضعت « مرسية » لحكم الموحدين ، ولابد أن يكون قد تلقى تربية أدبية ودينية كاملة ، لأنه في كتبه يشير مرارا عديدة إلى شيوخة القراءات والتاريخ والأدب والشعر والحديث ، وقد أقراه في اشبيلية خصوصا الكتب الرئيسية في كل فن » (١) .

#### شغفه بالعلم ومقدرته فيه :

وكان لدى « ابن عربي » استعداد قوى لطلب العلم وإقبال شديد على ارتياد موارده وانتهال غيظه ، وكان عنده نهم شديد إلى قراءة كل ما يتصل بفنون العلم المختلفة ، وهو يحدثنا في كتاب « المحاضرة » عن قراءاته لكثير من الكتب في مختلف الفنون : منها كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وكتاب المجالسة للدينوري ، وكتاب بهجة الأسرار للأمام ابن جبهة ، وكتاب المبتدأ لاسحاق بن بشر ، وكتاب دلائل النبوة للأمام الحافظ أبي نعيم ، وكتاب السيرة لمحمد بن اسحاق وكتاب السيرة لابن هشام ، وكتاب صفوة الصفوة لابن الجوزي ، وكتاب مسند الشهاب لابن سلامة القضاعي ، وكتاب المسند للأزرقي في مكة تأليف الأزرق بن عمر القضاعي الأزرق ، وكتاب المسند الكبير لابن حنبل ، وكتاب المسند للسجستاني ، وكتاب الترمذي وصحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرها (٢) .

(١) ابن عربي حياته وملهه ص ٨ .

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ج ١ ص ٥ .

وقد أشار هو إلى هذه الكتب وغيرها بعد قوله : « كل ما سطرته في كتابي هذا فمنه ما شاهدته أو حدثني به من شاهده ، ومنه ما نقلته من كتب مشهورة رويتها سماعا أو قراءة أو مداولة أو كتابة مثل ٥٥٠ » ثم يحدثنا عقب ذلك عن روايته عن كثير من الشيوخ في مختلف الفروع ، مما يشهد له بالحرص الشديد على طلب العلم والدقة في الرواية والتمكن فيها ، ويذكر عددا من الشيوخ الذين روى عنهم العلم وانتفع بهم مما يدل على أنه كرس كل وقته وكافة جهده لطلب العلم ، ويشهد لذلك الانتاج الضخم الذي أنتجه في مختلف المعارف .

وقد بدأ استعداده للتعلم مبكرا ، ولم يعق هذا الاستعداد ما يصرف مثله في هذه السن المبكرة من دوافع الصبا ، والرغبة في مشاركة الرفاق بعض لهوهم الساذج ومعهم البرينة .

ولقد كانت تغليه في بعض الأحيان طبيعة سنه ، فيقبل على الصيد في السهول المحيطة بأشبيلية محتطيا بصهوة جواد يركض به ، ولكن ذلك الإقبال لم يلبث أن يفتر سريعا تحت رغبة ملحة كامنة ، توحى إليه بوجوب انتهاء الوقت في تحصيل مالا يمكن تداركه بعد فوات الأوان ، وربما كان ذلك تعبدا للها لهذا الذي يوشك أن يصحب فيما بعد رجلا عارفا بصيرا ريانا مبارك الخطوات .

وبفضل هذا الإقبال العظيم على الطلب والافادة أصبح هذا الطالب المجد استاذًا يشار إليه بالبنان ، وأصبحت لديه المقدرة الكاملة على المقارنة والاستنباط ، وأعانتة قريحته النفاذة على إدراك ما استكن من أسرار العلوم ودقائق الإشارات ، ولكنه مع ذلك كان متعسكا بطريقة السلف الذين لم يروا غير الأخذ بالكتاب والحديث والاجماع ، فتجده ينحى باللائمة على من ينسبه إلى ابن حزم أو غيره من المجتهدين الأئمة ، وإن كان يكن لابن حزم وغيره من مؤلاء كل أجلال وأكابر ، ويعترف بقراءة كتبهم وتعلمه عليها . جاء

في شذرات الذهب : « كان ابن عربي » مجتهدا مطلقا بلا ريب .  
قال ( رائيته :

لقد حرم الرحمن تقليد مالك  
وأحمد والتعمان والكل فاعذروا

وقال أيضا :

لست ممن يقول : قال ابن حزم  
لا ولا أحمد ولا التعمان « (١)

ويقول أيضا في ذلك :

نسيوني إلى ابن حزم واني  
لست ممن يقول : قال ابن حزم  
لا ولا غيره فإن مقالي  
قال نص الكتاب ذلك علمي

أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول . ذلك حكمي

ويعلق الأستاذ عبد العزيز سيد الأمل على هذه الآبيات بقوله :  
« أبو محمد بن حزم الظاهري يأخذ بالنقل وظاهر النصوص  
ويستكثر من السنن ، وعن طريق النقص في النقل وضعف الثقة في  
الناقلين هاجم ابن حزم المال الأخرى ، ورأى لا تثبت أمام النقد  
الصحيح ، و « ابن عربي » مع اتفاقه مع ابن حزم في الاعتماد على  
النقل والنصوص لا يرى أن يأخذ بظاهرها وحسب ، بل ومعها  
بواطنها ، ولذا فهو يتنصل من اتهام بعض الناس له من أنه مقلد  
لا ابن حزم الظاهري ، ولم يقلد « ابن عربي » فقيها آخر . . سواء  
كان من الذين أخذوا بالظاهر ، أو جاسوا خلال الكلام وأخذوا بالرأي

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

كالقدرية أو المعتزلة أو الفلاسفة ، وإنما يعتمد في كل ما يقوله على  
نصوص الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الشريفة وأجماع  
المسلمين ، غير وأقف عند الظاهر ولا شاطح وراء الضلال ، ومهما  
كان تأويل « ابن عربي » لقول من الأقوال ، فإنه لم يعتمد علما  
ولا حكما إلا كما ورد عن الله وعن رسوله أو أجمع عليه جمهور  
المسلمين « (٢) .

ومما يؤكد ذلك قوله في الفتوحات : « وليس عندنا بحمد الله  
تعالى تقليد إلا للشارع صلى الله عليه وسلم » (٣) .

ويعلق ابن العماد على قول ابن عربي : لست ممن يقول قال  
ابن حزم قائلا : « وهذا صريح بالاجتهاد المطلق ، كيف لا ؟ وقد قال :  
عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه ، فكان يقول عن  
أحاديث صححت من جهة الصناعة ما قلتها ، وعن أحاديث ضعفت  
من جهتها قلتها . وإذا لم يكن مجتهدا فليس له مجتهد ، أن لا تراه  
فهذه آثاره » (٤) .

#### نقوره من الفلسفة :

تجهر « ابن عربي » في كل العلوم الشرعية واللغوية ، وأخذ هذا  
حظه الكامل ، ووصل إلى مكانة مرموقة ، ولكنه لم يعرف عنه أنه  
اختلف إلى أحد علماء الفلسفة ليتعلم منه ، فقد كان بطبعه يتفر  
منها . وهو يقص علينا في كتاب الفتوحات قصة لقائه مع فيلسوف  
الأندلس : « أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي » وعنهما  
نقهم أنه لم يكن يرغب فيما كان يشغل به ابن رشد عقله ، فلنستمع

(١) مجلة منبر الإسلام : ذو القعدة ١٢٨٦ هـ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٣ .

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٩ .

اليه يقول : « دخلت يوما بقرطبة على قاضيه أبي الوليد بن رشد ، وكان يرغب في لغائي لما سمع ، وبلغه ما فتح الله به على في خلوتي ، وكان يظهر التعجب مما سمع ، فبعثني والذي اليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي ، فانه كان من أسدقائه ، وأنا صبي ما يقل وجهي ولا طر شاربي ، فلما دخلت عليه قام من مكانه الى محبة واعظاما ، فعانقني وقال لي : نعم ، فقلت له : نعم ، فزاد فرحه بي لفهمي عنه ، ثم اتى استشعر بما أفرجه من ذلك ، فقلت له : لا ، فانتبض وتغير لونه ، وشك فيما عنده ، وقال : كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الالهي ؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر ؟

قلت له : نعم ، لا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها ، فاصفر لونه وأخذ الأفكل (١) ، وقعد يحول ، وعرف ما أشعرت به اليه ، وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الإمام أعنى مداوى الكلوم (٢) .

وطلب من أبي بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا . هل هو يوافق أو يخالف ، فانه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي ، فشكرا لله تعالى الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا ، وأخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ، وقال : هذه حالة اثبتناها وما رأينا لها أربابا ، قاله الله الذي اتا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها ، والحمد لله الذي خصني برؤيته .

ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية ، فأقيم لي رحمة من الله في الواقعة في صورة مشرب بيض وبينه فيها حجاب رقيق أنظر اليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكانتي ، وقد شغل بنفسه عني ، فقلت :

(١) الأفكل على وزن أحمد : الرعدة - قاموس .

(٢) مداوى الكلوم لقب أحد الأطباء الذين تعرف إليهم ابن عربي .

انه غير مراد لما نحن عليه ، فما اجتمعت به حتى درج ، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراکش ، ونقل الى قرطبة وبها قبره ، ولما جعل القابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تأليفه تعادله من الجانب الآخر ، وأنا واقف ومعنى الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير ، كاتب السيد أبي سعيد ، وصاحبي أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ ، فالتقت أبو الحكم إلينا وقال : ألا تنظرون الى ما يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه ؟ هذا الإمام وهذه أعماله ، يعنى تأليفه ، فقال له ابن جبير : يا ولدي ، نعم ما نظرت لأفض فوك ، فقيدتها عندى موعظة وتذكرة رحمهم الله جميعهم ، وما بقى من الجماعة غيري ، وقلنا في ذلك :

#### هذا الإمام وهذه أعماله

يا ليت شعري هل اقت أماله ؟ (١)

فنحن نفهم من قول ابن رشد : انه في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا وخروج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة - وهو يقصد « ابن عربي » بقوله هذا - ان « ابن عربي » حين دخل الخلوة لم يكن على دراية بعلوم الفلسفة التي يعتبرها ابن رشد هي العلوم الجديدة بالاطلاع ، ومن لم يطلع عليها فهو جاهل . كما نفهم من قول « ابن عربي » عن ابن رشد : انه غير مراد لما نحن عليه عدم رغبة « ابن عربي » في تلقى هذه العلوم التي كان يدرسها ابن رشد .

وكذلك نفهم من حوار الأصدقاء يوم وفاة ابن رشد مدى الرثاء لحالته ، وكيف يرى « ابن عربي » لحالة شخص ويرغب في أن يكون عليها ؟

كما نفهم أيضا كراهيته للفلسفة من هذه القصة التي يقصدها

(١) ابن عربي ص ١٢ .

في كتاب التدبيرات الالهية » رأيت لبعض أهل الكفر في كتاب سماه « المرتبة الفاضلة » رأيت بيد شخص بمرشانة الزيتون ، ولم اكن رأيت قبل ذلك ، فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه ، فأول شيء وقعت عيني عليه قوله : وأنا أريد في هذا الفصل ان ننظر كيف نصنع لها في العالم . فتعجبت من ذلك ورعيت الكتاب الى صاحبه « (١) » .

فاننا نرى ان « ابن عربي » حكم على ذلك الفيلسوف انه من أهل الكفر وذلك يبين مدى ما كان يكنه لهذا العلم من احساس ، ومع ذلك فان « ابن عربي » لم يؤثر عنه التزمت والجمود ولكنه كان يناقش قضايا هؤلاء الفلاسفة في هدوء ويرد على ما لم يقتنع به بالمنطق .

#### مكانته في العلم وشهادة العلماء له :

والقد بعثت همة « ابن عربي » في طلب العلوم وكانت له عزيمة لا تعرف الكسل ، وتكبد في سبيل تحصيله كثيرا من المشاق ، وكان كالحفلة دائب الانتقال من روض الى روض ، حتى جمع في ذلك ذخيرة شهد له بها القاصي والداني ، وسيأتي بيان عن ذلك بعد .

وقد اجازته كثير منهم مثل « ابن عساكر » امام وقته في علمه ودينه . والذي اشتغل عليه خلق كثير وتخرجوا على يديه وصاروا ائمة فضلاء وكان ممددا في الفتوى - توفي في العاشر من رجب سنة عشرين وستمائة بدمشق .

و « ابن الجوزي » الذي كان علامة عصره في الحديث وصناعة الوعظ ، وقد صنف في فنون عدة منها : زاد المسير في علم التفسير .

(١) ابن عربي ص ٢١ .

اربعة اجزاء ، وله في الحديث تصانيف كثيرة توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

و « الحافظ السلفي » أحد الحفاظ الكثيرين رحل في طلب الحديث ودخل ثغر الاسكندرية سنة ٥١١ وأقام به وقصده الناس من كل حذب ، وبني له العادل وزير الخليفة الطاهر مدرسة بالشر سنة ٥٤٦ هـ توفي ٥٧٦ بالشر .

واجازة هؤلاء الأعلام « لابن عربي » شهادة لها قيمتها ، لأنها تدل على مدى ما وصل اليه من مقدرة فائقة وبراعة لا نظير لها ، وتنفق لا حد له في سائر العلوم التي برع فيها هؤلاء الأعلام الأفاضل .

## سلوكه الطريق الصوفى - الرحلات التى قام بها

كان للبيئة التى نشأ فيها « سلطان العارفين » اثر كبير فى اتجاهه الصوفى فقد سبقت الاشارة الى صلاح أبويه وأعمامه وأخواله ، ثم من الله عليه بزوجة سالحة ، كانت نعم العون له على ارتياد الطريق الى الله .

وكان « ابن عربى » قد قلّم أعيناه وظيفة كاتب فى حكومة « اشبيلية »<sup>(١)</sup> ، ويذكر الشعرائى أن هذه الوظيفة كانت لدى بعض ملوك المغرب ، فيقول : « كان رضى الله عنه - أولا من الموقعين عند بعض ملوك المغرب »<sup>(٢)</sup> ويذكر صاحب نفح الطيب أنه « كتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق »<sup>(٣)</sup> ويذكر ابن العماد فى شذرات الذهب نقلا عن المناوى أنه « كان يكتب الانشاء لبعض ملوك المغرب »<sup>(٤)</sup> .

ولا تعارض بين هذه التسموس فى حقيقة الأمر ، فقد كانت

(١) ابن عربى ص ٩ .

(٢) البواتيق والجوامع ص ٧ .

(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ٩٢ .

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

أشبيلية ومرسية وغيرها من المدن الأندلسية الشهيرة تحت سيطرة الموحدين حلك المغرب .

ولكنه سرعان ما ضاق بقيود الوظيفة ، وتاق إلى الحرية ليتفرغ لما اختاره لنفسه على هدى من الله من زهادة وتقشف ، وقد كان ذلك في حياة أبيه ، وساعده على ذلك مرض شديد أصابه فالزمه الفراش ، فلما برئ منه كانت نفسه قد خلصت من شوائبها كالذهب الذي تهذيب النار ، وتبها للانصراف كلية إلى حياته الجديدة ، ولكن تفرغه الكامل لها لم يتم الا بعد وفاة أبيه .

وكان في ذلك الوقت فتى في حوالي العشرين من عمره ، وكان قد سبق ذلك الانقطاع قيامه ببعض المجاهدات ومن بينها الزام نفسه الخلوة بين الحين والحين ، يدل على ذلك الحاور التي تمت بينه وبين ابن رشد التي أشير إليها سابقا ، والتي أراد ابن رشد بواسطتها أن يجعل من « ابن عربي » موضوع دراسة وبحث .

وحبيب إلى « ابن عربي » العزلة ، فانقطع عن الناس وعاش بين المقابر . يقول الشعرائي « ثم انه طرقة طارق من الله عز وجل فخرج في البراري على وجهه ، إلى أن نزل في قبر نمكت فيه مدة ثم خرج » (١) . ويقول صاحب شذرات الذهب : « برز منفردا مؤثرا للخلق والاعتزال عن الناس ما أمكن ، حتى انه لم يكن يجتمع به الا الأفراد » (٢) .

ويحدث هو عن نفسه في كتاب الفتوحات قائلا : « ولقد كنت انقطع في القبور مدة متفرقا بنفسى ، فبلغنى أن شيخنا يوسف ابن خلف الكومي قال : إن قلانا - رسماى - ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى » (٣) ، وقد حدثت محاوراة بين هذا الشيخ وبين

(١) البراقية والجواهرى ص ٨ .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٣) ابن عربي ص ١٢ .

« ابن عربي » انتهت باعتراف الشيخ بأن الذي يجالس الأموات هو الذي يعيش بين الأحياء لا الذى يعيش بين القبور . « حقا ذلك ، فكم من ميت حى ، وكم من حى ميت - ولطالما سمعنا هذا الأثر : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، والقرآن الكريم يقول : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (١) .

بدأ تحول « ابن عربي » إلى الطريق الصوفى ميكرا ، وبدأ يتلمذ على كتب الصوفية ثم عقد العزم على التعرف إلى رجالهم والبحث عن شيوخهم وأعانتته مرأته الصافية على الانتفاع السريع بكل ما قرأ والأفادة ممن لقي وعرف .

والمعرفة الصوفية ليس لها سوى مفتاح واحد ان فقدته الإنسان حرم ، ولو كانت في يده حلقة بها مئات المفاتيح ، وهذا المفتاح هو العمل ، يصدق ذلك القرآن الكريم « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) . والأثر الشريف : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ولقد كان « ابن عربي » عاملا بما يعلم ، فتفتحت أمامه مغاليل العلوم ، وأعطته ما غمض من أسرارها ، وتمكن في وقت وجيز أن يترجم عن مفهومات حيرت الفحول من الرجال ، وجعلته كعبة القصاد في الوقت الذى كان هو يشد الرحال نحو كل من يسمع عنه انه ذات من هذا الطريق شيئا . وهذا هو التواضع الكريم الذى جعله الله حلية الكمل من الرجال .

ولذلك نراه قد كثرت رحلاته في داخل الأندلس وخارجها ، وكلها رحلات لم يكن الهدف منها سوى لقاء الشيوخ وتحصيل العلم واكتساب المعارف وبناء الرجال .

وبالرغم من أن « ابن عربي » وصل إلى منزلة عالية كريمة

(١) سورة ق ٢٢ .

(٢) البقرة ٢٨٢ .

الا انه كان يعترف دائما بان كل من يلقاه شيخ له ، فكان يقول :  
شيخي فلان ، ولقيت شيخي فلان ، وجاء لزيارتي شيخي فلان .

وشيوخ ابن عربي في الطريق كثيرون ، وكل شيخ له مزية خاصة  
ونوع خاص والطريق الصوفي غاص بالأسرار وملئ بالمعاني ، وكل  
سر له طريق لا يمكن النفاذ اليه الا بأرشاد يعرّفه شيخ ولا يعرفه  
آخر . فمن أجل هذا لم ينف ابن عربي من أن يتلمذ على الشيوخ  
جميعا ، وهذا الذي جعله يغرف من كل البحور ، ويفهم كل الاشارات  
ويترجم بمختلف الأسرار ولا يلتوى عليه أي مسلك ويشهد له العام  
والخاص .

فمن شيوخه الذين ذكرهم في كتابه الفتوحات ، موسى  
البيدراني ، ويحيى ، ابن عربي ، من الأبدال ، ويذكر أنه قدم اليه  
خاصة ، اشبيلية ، ليراه ، رغم أنه لم يكن قد بلغ بعد  
السابعة والعشرين من عمره ، وليس ذلك بغريب ، فليس التقدير  
بالسن ، فمن معاني كلمة « الشيخ » أنه من بلغ مرتبة أهل الفضل  
ولو صغيرا .

ومن شيوخه أيضا « أبو عمران موسى بن عمران المارتنى »  
وكان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة ، وكان ملازما  
لمسجده داخل اشبيلية ، وكان الملوك يزورونه ولا يلقفت اليهم ، وله  
نثر ونظم في الزهد مدون مشهور ، فمن نثره : كل ما يقنى ماله  
معنى - من خف لسانه وقدمه كثر ندمه - من أعطاك رقبه فقد  
منحك وده - ملك فؤادك من أفادك . ومن نظمته :

الى كم أقول ولا أفعل	وكم ذا أحسوم ولا أنزل ؟
وازجر عيني فلا ترعوى	وانصح نفسي فلا تقبل ؟
وكم ذا تعلل لي ويحها	بعل وسوف وكم تمطل ؟
وكم ذا أوّل طول البقا	وأغفل والموت لا يقفل ؟

توفي سنة ٦٠٤ هـ عن الثنتين وثمانين سنة (١) . وكان ابن  
عربي ، يجل هذا الشيخ كثيرا ، ويذكر عنه أنه سيد وقته ، ويعترف  
بأنه هو الذي أرشده الى كيفية تلقى الانبعاثات الالهية .

ومنهم « أبو الحجاج يوسف الشبريلي » وهو شيخ معتقد له  
كرامات ظاهرة وكان ملازما لتلاوة القرآن .

ومن شيوخه « يوسف الكرمي » العالم الورع المجاهد الذي  
كان يحث أتباعه على لزوم المجاهدة ، حتى يمكنهم اجتياز العقبات  
في طريقهم الى الله .

ومنهم « أبو عبد الله بن المجاهد » و « أبو عبد الله بن قيسوم »  
وكلاهما من الشيوخ الأجلاء المدققين الذين بلغوا في محاسبة النفس  
على الأقوال والأفعال مبلغا كبيرا ، وقد ترك كل هؤلاء اثرا في نفس  
« ابن عربي » نظرا لما تختلف عليه مشاربهم وأذواقهم .

وقد رسم هو على ضوء لسانه للشيوخ طريقه ومذهبه ،  
وبرأسلختهم قد استقار سبيله ووضحت محجته ، ومضى في طريقه  
لا يلوى على شيء ، مضيقا الى زاده ما يراه نافعا له في رحلته ومعينا  
له على غورة الطريق . لذلك نراه يدقق في محاسبة نفسه فلا يكتفى  
بمحسباتها على الأقوال والأفعال كما فعل « ابن المجاهد » وابن  
قيسوم ، ولكنه يزيد عليهما في التدقيق فيحاسب نفسه على  
الخواطر ، وتلك نهاية الورع . وما أحسب أن وصل اليها أحد الا من  
كان في مرتبة الصديقين .

ويقول « أمين بلاغيوس » عن « ابن عربي » : « أنه عمل على  
تكوين روحه منذ سنوات شبابه بالزهد في الشهوات نماذج رائعة  
في الزهد قدمها زهاد في اشبيلية على رأسهم جميعا يجدر أن نذكر  
عبد الله المغاوري » (٢) .

(١) المقرب في حلى المقرب ج ١ ص ٦٠٤ .

(٢) ابن عربي ص ١٧ .

و « أبو محمد عبد الله المغاوري » شيخ جليل له كلام رائع وتوجيهات كريمة منها قوله يوصي أبا الحسن الأشيبلي : « أمرك بخمس وإتباك عن شمس ، أمرك باحتسبال اذى الخلق ، وإدخال الراحة على الأخوان وأن تكون أنت لا لسانا ، والخامس أن تكون مع الناس على نفسك ، وإتباك عن معاشره النساء وحب الدنيا وحب الرياسة وعن الدعوى وعن الوقوع في رجال الله » فما أجمله من كلام خرج من نفس صافية !

وما أجدر « ابن عربي » بالانتماع بمثل هذه التوجيهات وهو الحريص على تحصيل الجيد من القول والنافع من العمل ، ليتخذ منهما دليلا ومرشده .

ولقى من شيوخه « شعيب بن الحسين الأنديلسي الملقب بأبي مدين » وقد دلت « ابن عربي » على لقائه خارقة من خوارقه العديدة (١) . وقد شهد هذا الشيخ لابن عربي ولقبه بسلطان العارفين « وكلام الرجل يدل دليل على مقامه الباطن » (٢) .

وأبو مدين أحد الصوفية العظام وأصله من أشبيلية . طوف سائحا في الأرض وسكن « بجاية » مدة ثم « تلمسان » وكان من أهل العمل والاجتهاد وكان امام وقته . وقد اقام مدرسة صوفية في مدينة « بجاية » تخرج فيها الكثير من الأجلة . وقد لقيه « ابن عربي » في أثناء جولاته التي قام بها في بلاد المغرب وكان يطلق عليه « شيخ الشيوخ » وقد خاض أبو مدين كثيرا من الأحوال ، وكان في مقام التوكل لا يشفق له غبار . توفي سنة ٥٩٠ أو ٥٩٤ على خلاف بتمسسان .

وعن الشيوخ الذين كان لهم تأثير خاص في حياة « ابن عربي »

(١) طبقات الشمراني ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) طبقات الشمراني ج ١ ص ١٦٢ .

الشيخ أبو العباس العربي . ويذكر أسين بلايوس عنه : أنه كان من الشيوخ المتوفرين في أشبيلية على تربية الشباب واعدادهم ليكونوا محل نظر الله في الأرض ، فكانوا يجتمعون لديه ، ويقراون من علمه وينتفعون بزمهده . وكانت له هيئة خاصة على مربييه . ويعتبرونه جميعا أباهم وهم أخوة بين يديه ، يستشهد لذلك بتفسيره معنى « الأقربون » في قوله تعالى « الأقربون أولى بالمعروف » بقوله : الأقربون هم الأقربون الى الله لا الأقربون في الرحم . وهذا التفسير ذكره « ابن عربي » في كتابه الفتوحات نقلا عن شيوخه العربي .

وتلقى « ابن عربي » عن هذا الشيخ كثيرا من التوجيهات ، ونقل عنه كثيرا من المعلومات وربما كانت تحدث بينه وبين شيوخه مناقشات في بعض الأحيان ، فيجند فيها « ابن عربي » ، لأنه لم يكن قد أخذ بعد على ذلك النظام الذي وضعه شيخه العربي لبريديه من وجوب التسليم المطلق للشيخ ، فيتدخل « الخضسر » حينذاك لرد « ابن عربي » الى الطريق السوي ، وهو وجوب عدم معارضة الشيخوخ . وقد ذكر ابن عربي في كتابه الفتوحات هذه الوقائع في أكثر من موضع ، فنذكر منها هذه الواقعة نقلا عن كتاب ابن عربي : « الخضسر صاحب موسى - عليه السلام - أطال الله عمره الى الآن بخلاف علماء الرسوم لخبر صحيح تألوه ، قد رأيناه مرارا واتفق لنا في شأنه أمر عجيب ، وذلك أن شيخنا العباس العربي ، جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلى عليه وسلم فقال لي : هو فلان بن فلان . وسمى لي شخصا أعرفه باسمه وما رأيته ، ولكن رأيته ابن عمته . فتوقفت فيه ولم أخذ بالقبول ، اعنى قوله فيه ، لكنني على بصيرة في أمره ، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى في باطنه . ولم اشعر بذلك في بداية امرى ، فانصرفت عنه الى منزلي ، ولما كنت في الطريق لقيني شخص لا اعرفه ، فسلم على ابتداء سلام محب



مشفق ، وقال لى يا محمد صدق الشيخ ابا العباس فيما ذكر لك عن فلان ، وسمى لى الشخص الذى ذكره ابو العباس العرينى . فقلت له : نعم وعلمت ما اراد ، ورجعت من حيتى الى الشيخ لأعرفه بما جرى ، فلما دخلت عليه قال لى : يا ابا عبد الله ، الاحتاج معك اذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها الى « الخضر » يتعرض اليك ويقول : صدق فلانا فيما ذكره لك ؟ ومن اين يتفق لك هذا فى كل مسألة تسعها منى فتتوقف ؟ فقلت : ان باب التوبة مفتوح ، فقال : وقبول التوبة واقع ، فعلمت ان ذلك الرجل كان الخضر ، ولا شك انى استفهمت الشيخ عنه : اهو هو ؟ قال : نعم هو الخضر (١) .

ولا شك فى ان ظهور الخضر لابن عربى أمر له أهميته ، وهو ان دل على شيء فانما يدل على قوة مكانته ورفعة منزلته ، وعلى انه سيكون ذا شأن عظيم فى الطريق ، والا لما كان ارشاده الى وجوب التسليم للشيخ وعدم منازعته على يد الخضر الذى اخفى الله صورته عن الناس لحكمة تدق على الأذهان .

وقد عد بعض المحققين « الخضر » من شيوخ « ابن عربى » فقد كان له معه اجتماع كثير (٢) . وانطلق « ابن عربى » فى طريقه وقد وضع هدفه ، وهو يحاول الانقياد بتوجيهات شيوخه والافادة من كل من يلقاه من اهل الطريق - وقد لقي كثيرا منهم - وكان يبدئه التواضع للجميع وخدمة الرفقاء ، وقد تعلم من ذلك علوما جمعة ، واستفاد فوائد كثيرة ، فقد عرف كيف يسوس نفسه وكيف يربى ارادته وكيف يجمع همه وكيف يصبر فى الشدة وكيف يزه عن ملك ويعف عن قدرة وكيف يجود بما عنده ويؤثر غيره

(١) ابن عربى ص ٢٢ .

(٢) تلخ الطيب ج ٧ ص ١٥٨ .

على نفسه . ورفع ذلك من همته فرمى بقصده الى الله ، عن طريق الحب يعرفه ، او عن طريق المعرفة يحبه .

ولم يأنف فى طريق الصعود الى الله ان يتعلم من كل من يلقى ، صغيرا كان أو كبيرا ، ذكرا كان أو انثى ، عظيما كان أو حقيرا .

وقد مر بنا كيف أنه خدم امرأة أدرك أنها عارفة بالله اسمها « فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي » ووصل من اعزازها له وانقطاعه لخدمتها ان كانت تدعوه بأبنيها ، وتقول له : انا امك الالهية « ونور » امك الترابية ، وقد مكث معها عامين يخدمها . كما عرف امرأة أخرى مسنة اسمها « ياسمين » وكان يعتزها من الأوامين ، كما صاحب « ابا يحيى الصنهاجى » الضرير وهو من اصحاب الكرامات و « يوسف الاستجى » وكان من الأميين المنقطعين الى الله ، و « ابا عبد الله الشرقى » وكان من اصحاب الخلوات « وصالحا البربرى » وكان صوفيا سائحا كثير التجوال . يقول : « كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير الاجتهاد سريع الدعة دائم العبارة كثير الفكرة والتعهد ، بت معه ليالى عدة ، فلم يكن يفتر ، فربما أسمعنى فى بعض الأحيان ينشد بصوت غرد ، ودموعه تنحدر على خديه :

قطع الليل رجال      ورجال وصلوه  
رقدوا فيه اناس      واتأس سمهوره  
لا يميلون الى النوم      ولا يستعذبوه  
فكان النوم شيء      لم يكونوا يعرفوه (١)

من هؤلاء جميعا تلقى « ابن عربى » فن الحكمة الصوفية ،

(١) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٢٢ .

وتلقى دروس الطريق وآدابها وكون لنفسه شخصيته الغذة التي اشرقت في الميدان الصوفي ، وكان لها ذلك الانتاج الغزير الوافر الذي لا يكون الا لمن عمر الله اوقاتهم وبارك فيها ، فكانت ايامهم الهية موفورة الجنى مباركة الثمرات .

#### رحلاته في داخل الأندلس وفي بلاد المغرب :

وبدا « ابن عربي » مرحلة جديدة من حياته ، بدأ يسبح في البلاد توقا الى ارواء ظمئه الى المعرفة ، وقد تعلم من تجاربه ان المعرفة بحر لا ساحل له ، اذ كلما ازداد الانسان منها شربا ازداد ظمأ .

و « ابن عربي » شأنه شأن الراسخين من رجال التصوف ، فقد تصوف عن علم يعد ان تجرد في علوم الشريعة وشهد له فيها كثير من اعلام الفقه والحديث والتفسير واللغة ، وهذه منزلة كفيفة وحدها ان ترفع من قدره بين اقدار الرجال ، ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا لارضاء ظموجه ، فقد كانت همته أبعد من ذلك ، وكان مثله كمثل حجة الاسلام الغزالي ، الذي سلك طريق التصوف بعد ان اربى ظمأه من كافة العلوم الأخرى مع غارق يسير ، يظهر في غزارة انتاج « ابن عربي » في علوم التصوف ، وغزارة انتاج الغزالي في العلوم الأخرى - والسبب راجع الى تفكير « ابن عربي » في ارتياد الطريق الصوفي ، اما الغزالي فلم يتصوف الا بعد ان افنى زهرة شبابه في العلوم الظاهرية .

والسياحة عنصر من عناصر الطريق الصوفي ، فمن طريقها يربى المرء ارادته ، ويهذب نفسه ، ويصح عزمه ، ويوثق صلته بالله ، ويقهر دواعي نفسه التي يولدها الركون الى الاستقرار ، وفي السياحة اعانة على الفكر وحث على المعرفة واكساب للتجربة واتس بالله والتقاء اليه واعتصام به ، لذلك لا نكاد نجد صوفيا الا وله سياحاته المتعددة ورحلاته المختلفة .

بدا « ابن عربي » رحلاته في داخل بلاد الأندلس وفي بلاد المغرب العربي ، وكانت رغبته في المعرفة رائده ، وكان لا يكاد يخلد بلد من البلاد التي رحل اليها من شيخ فاضل أو عالم جليل ، وكان يتعلم من كل رحلة علما جديدا ، وكان يقيد كل ما يعن له من فوائد وفيوضات ومعارف .

بدا رحلاته بزيارة مدينة « مودور » قبل سنة ٥٩٠ هـ وهناك التقى شيخ صوفي عظيم اسمه « أبو محمد الموروري » وكان عقده التوكل ، وكانت له معه صحبة جميلة اثمرت ثمارا يانعة وفوائد رائعة .

ورحل الى مدينة « الزهراء » ثم الى « قرطبة » ثم ارتد الى « اشبيلية » ولقيه بها كثير من الشيوخ الذين تسامعوا بعلو كعبه في الطريق الصوفي ، فقصدوا اليه طلبا للتعرف به والاقادة من علمه وخبرته .

ولم يلبث « ابن عربي » ان انطلق الى خارج الأندلس ميمعا شطر المغرب العربي ، فذهب الى « تونس » في حوالي سنة ٥٩٠ هـ ، ولكنهم يمل اقامته بها فقد عاد الى « اشبيلية » في نفس العام . وقد افاد من رحلته هذه افادة كبرى ، فقد لقي في تونس صوفيا كبيرا اسمه « أبو محمد عبد العزيز » الذي توطنت الصداقة بينه وبين « ابن عربي » كما لقي صوفيا آخر هو الشيخ « جراح ابن خميس الكتاني » من سادات القوم .

ورجع الى « اشبيلية » عن طريق محاذاته للشاطئ ، فمر على تلمسان ، وزار قبر خاله « يحيى بن يغان » الذي سبقت الإشارة اليه .

وفي العام التالي سافر الى « فاس » ثم عاد الى « اشبيلية » مرة أخرى ، وفي عام ٥٩٣ هـ ارتد الى « فاس » واقام بها فترة

عاكفا على العبادة والمجاهدة وعلاقة الشيوخ الأجلة من الصوفية ، أمثال الشيخ ، ابن عبد الله محمد بن قاسم ، أمام مسجد الأزهر ، بفاس ، وكان عالما جليلا ، وله مصنفات مشهورة من بينها كتاب : المستفاد في ذكر الصالحين من العباد ، وقد استمع « ابن عربي » إلى هذا الكتاب من مؤلفه .

وقد تلمذ على « ابن عربي » كثيرون في « فاس » وكان يلتقي بهم في مكانه المختار « بستان بن حيون » يستمعون إلى محاضراته الصوفية التي كان يلقيها عليهم .

ثم ذهب إلى « سبتة » والتقى هناك ببعض الصالحين ، وكان ذلك في طريق عودته إلى الأندلس سنة ٥٩٤ هـ ، وهو يريد عبور مضيق جبل طارق إليها .

وفي « غرناطة » التقى بشيخ جليل هو « أبو محمد عبد الله الشكاك » ويصفه « ابن عربي » بأنه من أكبر من لقيهم في هذا الطريق ، ولم ير مثله في الاجتهاد ، وكان ذلك اللقاء في صدر سنة ٥٩٥ هـ .

وفي العام نفسه توجه إلى مسقط رأسه « مرسية » ومنها توجه إلى « المرية » التي كانت مركزا هاما من مراكز التصوف في الأندلس ، ويبدو أن « ابن عربي » قد أقام فيها فترة طويلة يعكف على العبادة والتأليف ، ويلتقي بصادقه الصوف « أبي محمد عبد الله الغزالي » تلميذ الشيخ « أبي العباس بن العريف » أحد اعلام التصوف ومؤلفيهم ، ومن الكتب التي ألفها « ابن عربي » في المرية كتاب « مواقع النجوم » وهو من الكتب الهامة .

ولم يلبث في عام ٥٩٧ هـ أن اتجه إلى المغرب مرة أخرى ، والتقى في « مراكش » بشيخ زاهد من شيوخ التصوف أسماه « أبو العباس السبتي » ومن هناك انتقل إلى « فاس » بناء على

أمر الهى صدر لإليه ليصطحب من هناك شخصا اسمه « محمد الحصار » إلى المشرق .

هذه هي الرحلات التي قام بها « ابن عربي » في داخل حدود الأندلس والمغرب والتي بدأت برحلته إلى « مرور » قبل سنة ٥٩٠ هـ بقليل وانتهت برحلته إلى « مراكش وفاس » في عام ٥٩٧ هـ .

### رحلاته إلى المشرق :

بدأ « ابن عربي » رحلته الكبرى إلى المشرق سنة ٥٩٨ هـ كما تقول المصادر ، وتختلف وجهات النظر حول أسباب هذه الرحلة ، فبعضهم يرجعها إلى أسباب سياسية تعود إلى ما ساد البلاد في المغرب من فتن واضطراب في ذلك الحين ، بسبب اقوال شمس الموحدين . يقول الدكتور جودت الركابي : « ولما أضعف شأن الموحدين وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والشعور الأندلسية - غادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير وأثروا العمل في جو أكثر استقرارا وطمانينة مثل الشيخ محيي الدين بن العربي شيخ المتصوفين الشهير وابن البيطار المالقي » (١) .

ويرى صاحب كتاب « الشعر الأندلسي » أن السبب في هجرة كثير من العلماء والشعراء ومنهم « ابن عربي » يرجع إلى اضطحال الأندلس الاسلامي تحت وطأة الاسترداد التي شاعت في ذلك الوقت (٢) .

(١) الشعر الأندلسي لاميرونيس ترجمة حسين مؤنس ص ٣٦ .

(٢) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ص ٥٧ .

ولكن يبدو أن « ابن عربي » لم يكن مختاراً في القيام بهذه الرحلة ، ولكنها كانت توجيهها إليها ، وليس ذلك بغريب ، فإن من صفت مراقبهم وارتقت أحوالهم أصبحت حركاتهم ومساكناتهم لا تصدر إلا بناء على توجيه الهى يدركونه بأرواحهم وأذواقهم ، فقد تخلوا عن حظوظهم البشرية ، وارتقوا الى مستوى يجعلهم ريانيين يدخلون في نطاق الأثر القدسي : عبدى الملعنى أجمعك ريانيا ، والرياني هو الذى يذكره القرآن الكريم بقوله : « ولكن كونوا ريانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (١) .

رأى رؤيا في « مراکش » يلقي اليه فيها الأمر بالتوجه الى مدينة « فاس » ومن هناك يصطحب شخصا اسمه « محمد الحصار » الى المشرق . ويستجيب ابن عربي للأمر ويلتقى بالحصار الذى يخبره بأنه رأى مثل هذه الرؤيا ، ويتجهان معا نحو « تلمسان » .

أما الرؤيا العجيبة التى تكشف عن مستقبل « ابن عربي » وعلم منزلته فهي التى رآها في « بجاية » في العام نفسه ، وهذه الرؤيا يقصها علينا صاحب نفع الطبيب على لسان « ابن عربي » « رأيت ليلة اثنى عشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان مائة وثمانين ، فمما بقى نجم الا انكته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما كملت نكاح النجوم اعطيت الحروف ( وفي نسخة اعطيت البدور ) فنكتتها ثم عرضت رؤياي هذه على من قصا على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذى عرضتها عليه : لا تذكرنى ، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر الذى لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه احد من اهل زمانه ، ثم

سكت ساعة وقال : ان كان صاحب هذه الرؤيا في المدينة ، فهو ذاك الشاب الأندلسى الذى وصل اليها » (٢) .

وبدأت رحلته الكبرى الى المشرق في العام التالى ٩٨٨ هـ وتوقف في « تونس » فترة طويلة بلغت حوالى تسعة شهور ، استأنف بعدها السفر قاصدا مكة المكرمة ، ومر في طريقه « مصر » ، ولكن اقامته لم تطل بها في هذه المرة ، وفي « مصر » فقد صاحبه الذى أمر باصطحابه ، فقد مات ودفن بها ، وواصل « ابن عربي » رحلته الى مكة وحيدا .

وكانت شهرته قد سبقت الى هناك ، وتوافد عليه الأولياء والعلماء من كل فج يطلعون رؤيته والافادة من علمه وقضله ومعرفته .

وتوثقت الصلة بينه وبين « مكين الدين أبى شجاع زاهد ابن رستم بن أبى الرجا الأصفهاني » امام مقام ابراهيم . ولهذا الشيخ أخت عالمة مسنة اطلق عليها « ابن عربي » لقب : شبيخة الحجاز وفخر النساء : وله ابنة من أرباب الأحوال والمقامات . جمعت بين الحسنين الظاهري والمعتوى ، ووصفها بأنها من العابدات العالمات السابحات الزاهدات ، وأطلق عليها لقب : شبيخة الحرمين وحرية البلد الأمين ، أما اسمها فهو « النظام » .

وكانت هذه الفتاة آية من آيات الله في العلم والفهم والابانة ، وكان من الطبيعي أن تدور مناقشات علمية صوفية بين « ابن عربي » وبين أفراد هذه الأسرة الكريمة . ويجب بهذه الفتاة التى بلغت في المعرفة حدا كبيرا ، وكانت مصدر الهام أوحى له بديوان « ترجعان الأشواق » الذى نسج فيه قصائده الرمزية على طريقة الصوفية التى يتغزلون فيها بإنسان حى ، ولا يقصدون من ورأته

سوى الإشارة الى معان علوية دقيقة ، ثم لم يلبث أن وضع شرحا لذلك الديوان خوفا من أن يسبق الى ذهن أحد فهم خاطئه لا يتناسب وجلال هذه المقطوعات الصوفية الرائعة .

وأقام « بالطائف » قريبا من « مكة » فترة من الوقت وعاد الى مكة ، ولقى بها بعض الصوفية ، والتقت روحه مع روح بعض الذين فارقوا الحياة الدنيا من الأولياء والصالحين والصدّيقين .

وفي عام ٦٠١ هـ رحل الى « بغداد » ولكنه لم يقم بها سوى اثني عشر يوما استأنف بعدها السفر الى « الموصل » للقاء شيخ من شيوخ الصوفية اسمه : « على بن عبد الله بن جامع » وكانت لهذا الشيخ روح خاصة وتعلق شديد بالخضر .

وانتجه « ابن عربي » صوب « مصر » في سنة ٦٠٣ هـ حيث أقام هناك في صحبة بعض الصالحين ، يعمرون أوقاتهم بالعبادة والطاعات في أحد البيوت « بزقاق القناديل » بالقاهرة ، وكان ذلك في خلافة الملك العادل ، وقد تعرض لحجة سنعرض لها فيما بعد .

ومن القاهرة توجه الى « الاسكندرية » حيث لم يقم فيها طويلا ، ثم غادرها الى مكة .

وينكر الدكتور « على سالي حسين » أن « ابن عربي » التقى « بابي الحسن الصباغ » في أرض الصعيد بمصر ، في أثناء ذهابه الى مكة ، وحضر مجالسه « و » الصباغ « شاعر صوفي مشهور ، ولكن شهرته لم تصل الى شهرة غيره ممن جاوزوا مواطنهم الأصلية وسأحوا في البلاد ، واسمه « على بن أحمد بن اسماعيل ابن يوسف » وكنيته : « أبو الحسن الصباغ » وأصله من مدينة « قوص » وتوفي سنة ٦١٢ هـ . واشتهر بالزهد والورع والعمق في التصوف ، وأنه كان من خير شيوخ التصوف تربية ، وأستاذه

الشيخ « عبد الرحيم القناوي » أكبر رجال التصوف شهرة وأعظمهم قدرا وإبدهم عينا في القرن السادس الهجري<sup>(١)</sup> .

والتقى في مصر أيضا بسلطان العاشقين « ابن الغارضي » على رأي ، وسبأتي حديث عن ذلك بعد .

وأقام الشيخ الأكبر في « مكة » عقب رحيله من مصر إليها فترة لم تطل ، فسرعان ما أخذ أهله ، بناء على التوجيه الروحي الى مواصلة السياحة ، فرحل الى آسيا الصغرى وحط رحاله في « قونية » سنة ٦٠٧ ، وكانت « قونية » عاصمة الإقليم الخاضع للمسلمين في الدولة البيزنطية ، وقد استقبل هناك استقبالا حافلا ، وخرج الملك بنفسه لاستقباله احتراماً له وقياماً بواجب الضيافة ، وأهداه داراً تقدر المصادر قيمتها بمائة ألف قطعة من الفضة ، ولكنه تصدق بها .

وربى في « قونية » كثيرا من المريدين ، على رأس القائمة منهم « صدر الدين القونوي » الذي كان من أحب تلاميذه إليه ، والذي كان له فضل كبير في تيسير تلقى علوم أستاذه للمتعلمين ، وفي حمل لواء الدفاع عنه ضد المهاجمين والناقدين .

ولم يستقر في « قونية » طويلا ، فقد واصل تجواله في آسيا الصغرى ، واستمر في هذه الرحلة ما يقرب من عام ، مر في خلاله بكثير من المدن الهامة في الأناضول مثل « قيصريّة » و « ملطية » و « سيواس » و « أرزن الروم » وقد كانت آسيا الصغرى تطلق على « أرمنيّة » و « تركيا والأناضول » .

ثم لم يلبث أن دخل « العراق » فزار « حران » في نفس

(١) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري من ١٢٠٠ - الدكتور على سالي حسين .

العام يصحبه في هذه الرحلات بعض أخواته من أهل الطريق ،  
قياسون في سياحاتهم أشد ما يكون الأتس ، وينعمون بما يتلقونه  
من فيض الهى وعدد روى ، ولقد أشار « الشيخ الأكبر » في كتابه  
« المفاتيح » إلى هذه الرحلة بقوله يمجّد أحد أخوانه الذى  
سره منه حسن بره بأمره وعنايته بها : « أعرف ذلك الشخص  
بعينه وصحبته وكان يعظمنى ويرى لى كثيرا ، واجتمعت به في  
« دمشق » و « سيواس » و « حلب » و « قيصريه » ،  
وخدمنى مرة ، وكانت له والدّة كان يارا بها ، واجتمعت به في  
« حران » في خدمة والدته ، فعا رأيت من يبر أمه مثله ، وكان ذا  
حال ، ولّى سنون فقده من دمشق ، فعا أدري هل عاش  
أو مات » (١) .

وفي عام ٦٠٨ التقى « بالشهاب السهروردى » في بغداد . حين  
رجل إليها بعد انتهاء رحلته في « آسيا السقرى » مارا « بدليس »  
في نيار بكر ، وشاهد ماء الفرات وقد جمد تحت برد الشتاء  
القارس في أقصى الشمال حتى عاد « أرضا تمشى عليه القوافل  
والناس والدواب . والماء تحت ذلك الجليد جار » (٢) .

و « السهروردى » كان في ذلك الوقت شيخ الصوفية في  
« بغداد » ، وقد وصل في التصوف إلى منزلة لا تدانيها منزلة ،  
ولذلك كان حرص « ابن عربى » على لقائه شديدا .

والصوفية لهم تقاليد خاصة في مقابلاتهم ، وهى تختلف من  
شخصية إلى أخرى ، ولكنها تقاليد لها احترامها ، فمن تقاليد  
بعضهم في اللقاء الصمت ، ولكنه صمت أبلغ من الكلام ، وهذا  
ما حدث بين « ابن عربى » و « السهروردى » حين تقابلا ، كان

(١) ابن عربى ص ٦٨ .

بينهما صمت باللسان ، ولكن كان هناك تخاطب بالجان ، خرس  
الألفاظ وتحديث اللحاظ ، ومكثا هكذا مدة طويلة ، وانصرف كل  
منهما دون أن يتيسر بيث شقة ، وحين سئل « ابن عربى » عن  
« السهروردى » بعد ذلك أجاب بأنه : مملوء سنة من فرقه إلى  
قدمه . ولما سئل « السهروردى » : ما تقول فى « ابن عربى » ؟  
قال : انه بحر الحقائق (١) .

و « السهروردى » هو شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد  
ابن عبد الله بن عمويه « محمد » « السهروردى » كان أمام وقته  
لساننا وحالا ، ولد سنة ٥٢٩ هـ وتوفى « ببغداد » سنة ٦٢٢ هـ  
ومن شعره الذى يدل على صفاء روحه قوله على طريقة الرمز  
بالخمر :

لا تسقنى وحدى فما عودتى  
أتى أشج بها على جلاسى  
أنت الكريم ولا يلىق تكـرما  
أن يصبر الندماء دون الكاس

وارتفعت منزلة « ابن عربى » في « بغداد » ارتفاعا عظيما .  
وكثر التلاميذ من حوله ، وتطايّرت شهرته إلى كل مكان ، ولعله  
وجد في « بغداد » أنسا روحيا جعله يركن إلى الاستقرار فيها  
فترة من الزمن ، قبل أن يتركها عائدا إلى « مكة » في سنة ٦١١ هـ .

ولم يبق في « مكة » طويلا ، ففى رمضان سنة ٦١٢ هـ سافر  
إلى « قونية » مرة أخرى ، ثم تركها إلى « حلب » في السنة التى  
تليها ، وصادف لدى أميرها تكريما عظيما جعله مقصد أصحاب  
الحاجات والمظالم .

(١) ابن القزوينى سلطان الماسكين ص ٨٦ .

وسافر الى « حمص » حيث وجد تكريم سلطانها له لا يقل عن تكريم غيره من الملوك والأمراء الذين سعدوا بلقاء « ابن عربي » في ممالكهم ، وأراد « أسد الدين شيركوه » سلطان « حمص » أن ينظر بأبصاره عنده نهائياً ، بأن يجعله يتخذ من « حمص » دار إقامة له ، فأمر له بعطاء يومي يقدر بمائة درهم ، ولكن كيف يقبل العصفور الطليق البقاء في قفص ولو كان من ذهب ؟

ولو كان « ابن عربي » هدفه الدنيا وطلب الأمان لوجد ضالته في كل مكان ذهب اليه وحل به ، ولكنه كان قد ملك عنان الزهد ، وانصرف بكليته عن الدنيا التي تنظر اليها من وجهة نظر القرآن الكريم حيث يقول : « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم » (١) فلم يلبث أن انطلق كعادته محققاً في فضاء الكون الواسع تصرفه القدرة حسبما تريد ، غادر حمص سائحا قمر « بعلبية » وهناك ولد له غلام في رمضان سنة ٦١٨ هـ .

ولكن هذه الحياة المضيئة والتجوال المستمر والجهد المتواصل ، في ظل نظام صارم من الزهد والتقشف وملزمة العبادة والسهر كان لكل ذلك اثر كبير في توجه الشيخ الأكبر الى « دمشق » ليستقر نهائياً بها منذ سنة ٦٢٠ هـ ، حتى وافته متيته المحتومة ، فلبى نداء ربه الكريم وسعد بجواره نهائياً في سنة ٦٢٨ هـ .

وقد كان اختياره « دمشق » لتكون مقراً نهائياً له اختياراً مبنياً على هدى من توجيه الرسول الكريم - صلوات الله عليه وسلامه - الذي ثبت عنه انه قال : عليكم بالشام ، فانه خيرة الله من أرضه واليهما يجتبي خيرته من عباده (٢) .

(١) سورة الحديد ٢٠ .

(٢) ابن عربي ص ٨٥ والعبارة منقولة من الفتوحات ج ٤ ص ٤٦٩ .

وفي دمشق بشره النبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق امنيته في اخراج « فصوص الحكيم » الذي يقول في مقدمته : « .. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمدرسة دمشق ، وبهده صلى الله عليه وسلم كتاب . وقال لي : هذا كتاب فصوص الحكيم . خذ واخرج به الى الناس ، ينتفعون به ، قلت : السمع والطاعة لله ولورسوله وأولى الأمر منا » (١) .

### حياة حافله :

على أن استقرار الشيخ الأكبر في « دمشق » لم يكن يعنى خلوه الى الراحة فقد ظل شاكفا على مجاهداته في العبادة وتأليفه في علوم التصوف حتى أضر نفس من حياته ، وبذلك يمكن أن ندرك أن حياة « ابن عربي » كانت حافلة بهلالات الأعمال منذ الأيام الأولى حتى الأيام الأخيرة منها .

لقد كانت هذه الحياة سلسلة متواصلة الحلقات من الرحلات التي لم تكد تنتهي واحدة منها حتى تبدأ أخرى ، ولم تكن هذه الرحلات الا هادفة دائماً الى تحقيق اغراض كريمة ، وفي أثناء ذلك تحصل المعارف أو لقاء الشيوخ أو تربية المريدين ، وفي أثناء ذلك كانت تظهر له مؤلفات نافعة تتم عن عبقرية فريدة في نوعها .

وإذا تتبعنا خطوات سياحته يمكن أن نقف على أحداث هامة في حياته ارتبطت بهذه السياحات ارتباطاً بالأسباب بمسبباتها . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ - كانت رحلته الى مكة في فترات المتعاقبة موحية له بتأليف

(١) شرح القاشاني على فصوص الحكيم ص ١٠ .

كتب من أهم كتبه التي كان لها دوى هائل في الأوساط العلمية والصوفية والأدبية .

منها « ترجمان الأشواق » الذي ألفه في سنة ٥٩٨ هـ ، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية عنه ما يأتي : « وتعرف «ابن عربي» أثناء إقامته بمكة عام ٥٩٨ هـ بامرأة عالة من تلك المدينة ، ولما عاد إلى مكة عام ٦١١ هـ نظم مجموعة صغيرة من الأشعار الغزلية أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتان وما كان بينه وبينها من حب ، وفي العام التالي رأى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوري ، وقد نشر هذه الأشعار وشرحها وترجمها إلى الإنجليزية نيكلسون » (١) .

ولكن الحقيقة أن هذه القصائد ألفت في عام ٥٩٨ هـ ، وليس في عام ٦١١ هـ ، وأن الشرح هو الذي كان في عام ٦١١ هـ . يذكر ذلك « ابن عربي » نفسه في مقدمة « ذخائر الأعلاني شرح ترجمان الأشواق » حيث يقول : « لما نزلت مكة سنة خمس مائة وثمان وتسعين الفيت بها جماعة من الفضلاء .. ولم أر فيهم مع فضلهم مثل الشيخ العالم الإمام بمقام إبراهيم عليه السلام نزيل مكة مكين الدين أبي شجاع .. وكان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عتراء طفيلة هيفاء تقيد النظر وترزين المحاضر وتحير المناظر تسمى « بالنظام » من العابدات العائلات المسائحات الزاهدات شبيخة الحرمين .. فأرغينا في صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد فقلدناها من نظلنا في هذا الكتاب أحسن القلائد » (٢) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن عربي ج ١ .

(٢) ذخائر الأعلاني في شرح ترجمان الأشواق ص ٤ .

وقد أثبت ذلك « أسمين بلاثيوس » في كتابه « ابن عربي » حيث يقول : « أنه في نفس السنة سنة ٥٩٨ هـ بلغ الغاية من رحلته . إذ بلغ مكة وسرعان ما ذاع صيته في هذه المدينة المقدسة ، وبدأ العلماء والصالحون يتوددون إليه ، ومن بين هؤلاء الإمام الحوكل بمقام إبراهيم واسمه « أبو شجاع » الذي انعقدت بينه وبين « ابن عربي » مودة وثيقة ، وكانت لهذا الإمام بنت ذات جمال . فأوحى إلى ابن عربي بموضوع كتاب من أشهر كتبه هو ترجمان الأشواق . ثم يقول : تراه في سنة ٦١١ هـ لا يزال في مكة عاكفا على عبادته المعتادة في الكعبة ويكتب شروحه على ترجمان الأشواق » (١) .

ولسنا بصدد الدفاع عن « ابن عربي » في قصائده تلك التي أثارت حوله ثائرة الفقهاء والمتشككين ، لأن حياة الشيخ الأكبر نفسها تضعه فوق مستوى أي شبهة من الشبهات وتدافع عنه . والمنهج السلوكي الذي اختاره لنفسه قد جعله زاهدا في كل متعة من متع الحياة رخصت أو غلت . وليس من المستعاج أن يقبل هذا السائح الرامى بقصده إلى الله أن يتغزل غزلا حميميا في فتاة كان هو في ضيافتها وضيافة أبيها . فإن لم يتناف هذا مع صلاحه وصلاحها لماته يتناني مع طبيعته كعربي جواد شهم فلي يتسبب إلى أرقى أرومة من أرومات العرب مجدا وأباء وشهامة ، وهي أرومة طيبة .

وأن هذه الخواطر التي حاكتها أخيلة المهاجمين هي التي جعلته يسارع في تأليف شرح لهذه القصائد الصوفية الغزلية ، التي نحا فيها منحنى الرمز الصوفي الذي دأب الصوفية على

(١) ابن عربي ص ٥٧ .



استعماله منذ أن تطور التصوف إلى أتواق ومواجيد وانطلق الصوفية بعواطفهم نحو الله . ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصرحوا بذلك فرمزوا عن حبهم لله بالغزل الحمسى ضنا بأسرارهم وحفاظا على معانيهم ، ولذلك نرى ابن عربي يقول : « وقد شرحنا من ذلك نظما لنا بمكة سمعناه ترجمان الأشواق وشرحنه في كتاب سمعناه النخائر والأعلاق بسبب اعتراض بعض فقهاء حلب علينا ، في كوننا ذكرنا أن جميع ما نظمناه في هذا الترجمان إنما المراد به معارف الهية وأمثالها ، فقال : إنما فعل ذلك لكونه منصوبا إلى الدين ، فما أراد أن ينسب إليه مثل هذا الغزل والتشبيب ، فجزاه الله خيرا لهذه المقالة » فانها حركت دواعينا إلى الشرح فانتفع به الناس ، فأبدينا له ولأمثاله صدق ما نوبناه وما ادعيتاه ، فلما وقف على شرحه تاب إلى الله من ذلك ورجع » (١) .

ولكن الدكتور زكي مبارك يتابع دائرة المعارف الإسلامية في فهمها عن ابن عربي من أنه كان يقصد الغزل الحمسى ، وذلك في كتابه التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ويقول : انه حين أراد أن يوجه هذه القصائد وجهة صوفية ارتكب كثيرا من التصف ، وهذا القول له خطورته ، فابن عربي مصدق في قوله ، وقائع حياته تؤيده يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجيوشي : « ومن البين لكل من له صمبة في الشعر الصوفي أنه يتعذر كثيرا على دارسه التمييز بين هذا الضرب من الشعر وبين الشعر الغزلي ، هل هذا قيل في معشوقة من البشر أو منشودة من السموات ؟ حتى أن ابن عربي اضطر إلى كتابة شرح لتوضيح الغرض من أشعاره وإزالة ما علق بالأذهان من أنها قيلت تشبيها بامرأة » (٢) .

(١) ابن عربي ص ٧٥ .

(٢) بين التصوف والأدب لمحمد إبراهيم الجيوشي ص ٨٢ .

ولو صنع قول الدكتور زكي مبارك عن ابن عربي لصح إطلاقه على كل شاعر صوفي له شعر غزلي ، ولصح عن رابعة العدوية التي يطلق عليها شهيدة العشق الإلهي أن معشوقها انسان في تلك الأشعار الرائعة التي وقفت أنفاس المحبين حولها لاهثة .

وليس هناك تعسف في شرح ترجمان الأشواق ولكنها المعاني العميقة والأسرار الإلهية التي حازلت تجد صيانتها في قلم ابن عربي عن الابتدال رغم الشرح ، وستظل كذلك في صون وحفاظ حتى ولو وضع حولها الشارحون ألف شرح وشرح .

ومن كتبه الهامة في « مكة » الفتوحات المكية الذي يقول عنه الشعراشي : انه بعد أن ألهم وضعه فوق الكعبة عاما كاملا ، ثم بعد ذلك تنارله فوجده بالحالة التي وضعه عليها لم تؤثر فيه شمس ولا أمطار ولا رياح (١) .

ويعتبر تأليف هذا الكتاب صدى لما وصل إليه « ابن عربي » من منزلة روحية عظيمة وكما يقرر هو أن ما ورد فيه كان قبيضا إليها القاه الله في روعه فترجم عنه في هذه الأجزاء الضخمة ذات الستين والخمسمائة فصل .

وكتاب الفتوحات - الذي نرجو أن نتحدث عنه قريبا بعد - له اثره الخطير بين الصوفية ويعد من الكتب الرئيسية في علم التصوف .

٢ - مجيئه إلى « مصر » في سنة ٦٠٣ هـ كان سببا في إثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل ، وهمو : بأن يبطشوا به لولا أن قبض الله له من كان سببا في انقاده من هذه الفتنة التي أوشكت أن تعصف به .

(١) البراقبت والجواهر من ١٢ .

وقصة ذلك أنه حين قدم القاهرة نزل في دار بها جماعة من الصوفية في « زقاق القناديل » ، والتأم شمل هؤلاء حول ذكر الله والتزام عبادته على نحو خاص أدى الى ظهور بعض الخوارق على أيديهم ، وفي ليلة انبعثت من أجسام الذاكرين انوار مضيئة بدت تلام الحجرة ورأى « ابن عربي » شخصا يخاطبه بلسان غيب فصيح قائلا : « اعلم أن الخير في الوجود والشر في العدم ، أوجد الانسان بجلوه وجعله وحدانيا في وجوده ، تخلق باسمائه وصفاته وفنى عنها بمشاهدة ذاته ، قرأى نفسه بتقصيه وعاد العدد الى اسمه فكان هو ولا انت » .

وقد فهم « ابن عربي » هذه الاشارات وحاول أن ينظم حولها شعرا يترجم عن معانيها ، ويبدو أن عوام الصوفية لم يدركوا جلال هذه المعاني ففقلوها عفوا أو تباهيا الى اسماع الفقهاء الذين يغارون على السنة ، ولعل ما كان قد شاع من أشعار ترجمان الأشواق قبل كتابة شرحها قد وصل أيضا الى اسماع هؤلاء فاضيف هذا الى ذلك ، وأوصلوه الى الملك العادل متهمين « ابن عربي » بالكفر والشور وعظام الأمور ، طالبين منه اهدار دمه حتى يكون عبرة لغيره .

ولكن الغريب أن « ابن عربي » لم يتأثر بذلك ولم يتزعزع إيمانه ، وكان ذلك بسبب توقعه لما يحدث له وتوطينه النفس على الصبر على ذلك . جاء في شذرات الذهب : « وقد أودى الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره » ، وقد أخبرهم عن نفسه بذلك . وذلك من غرر كراماته . فقد قال في الفتوحات : « كنت نائما في مقام إبراهيم ، وإذا بقاتل من الأرواح يقول لى عن الله : ادخل مقام إبراهيم انه كان أوامعا حليما ، فعلمت انه لابد أن يبتلينى بكلام قى عرضى من قوم فأعاملهم بالحلم قال : ويكون اذى كثيرا فانه جاء بحليم بصيغة البالغة ، ثم وصفه بالأواد ، وهو من يكثر التأوه لما

يشاهد من جلال الله » (١) وقد وطن الشيخ الأكبر نفسه على الصبر لهذا الأذى حتى يكون جديرا بالتخلق بمقام الخليلية .

يقول مؤلف كتاب « ابن عربي » ومن حسن الحظ في هذه المناسبة أن هذه الاتهامات لم تلق اذنا سميعة عند الملك العادل لسياسته الحرة السليمة ، وكانت توصية من جانب الشيخ أبى الحسن البجائى صديق ابن عربي ، كانت هذه التوصية كافية لتفسير مذهب ابن عربي في وحدة الوجود تفسيراً رمزياً فامر بإطلاق سراحه » (٢) .

ولم تثن هذه المحنة عزيمة « ابن عربي » ، ولم تعقه عن طريقه . لأنه عرف هذا الطريق وأدرك نهايته وأيقن بسلامته ، واستهان بكل خطورة فيه .

#### هل التقى ابن عربي بابن الفارض ؟

شئ آخر في مصر يعد من الأحداث الهامة في حياة الشيخ الأكبر ذلك هو لقاءه بابن الفارض .

كان ابن الفارض معاصرا لابن عربي ، وإن اختلف موطن كل منهما . فقد ولد ابن الفارض في مصر سنة ٥٧٦ هـ ونشأ بها في ظل الدولة الأيوبية ورحل الى مكة وقضى بها خمسة عشر عاما ، رجع بعدها الى القاهرة حيث مكث بها حتى وافته منيته سنة ٦٢٢ هـ بعد أن بلغ في العلوم الدنية والصوفية مبلغا كبيرا ، وقد ضمن خلاصة معرفته أشعاره التي سرت مسرى الشمع ، ووضع حولها الشراح كثيرا من الشروح والتعليقات وأطلق عليه من أجلها « سلطان العاشقين » وكان أهم أشعاره قصيدته « نظم السلوك » (٣) .

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) ابن عربي ص ٦٥ .

(٣) راجع عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ١٢٠ ، ١٢٧ .

ولقد اشارت بعض المصادر اشارات طفيفة حول امكان هذا اللقاء ، فقالت : ان محيي الدين بن عربي طلب من ابن الفارض ان يأتين له في شرح تأثيته الكبرى فاجاب ابن القسار : بان كتابك الفتوحات المكية شرح لها . ومن هذه المصادر ما نقله المقرئ في نفح الطيب عن « المقرئ » في ترجمته لعمر بن الفارض (١) .

ولكن تفصيلات هذا اللقاء لم يتعرض لها أحد ، حتى يمكن معرفة الزمان والمكان وبقيّة ما دار بين هذين الشيخين من حديث ، مما جعل بعض المهتمين في العصر الحديث بدراستهما يغفلون هذه الحادثة إطلاقاً ، كما فعل « أسين بلاثيوس » في ترجمته « لابن عربي » فإنه برغم تعرضه لبعض التفصيلات الدقيقة لحياته لم يتعرض لذكر واقعة لقائه بابن الفارض ، وإن كان قد ذكر عن « ابن الفارض » أنه بلغ مرتبة عليا في التصوف والارتفاع في قلوب المسلمين ، وذلك حينما تحدث عن شهرة « ابن عربي » ، الذي طبقت شهرته بلاد المشرق كلها ، لا يتنافس في شهرته غير صوفي آخر معاصر له هو عمر بن الفارض الشاعر المصري الصوفي المشهور (٢) .

ويجوز أن يقال : ان منهج « أسين بلاثيوس » في ترجمته لابن عربي يعتمد على ابن عربي نفسه في كتبه ، ولا سيما كتاب الفتوحات لأنه يقول في مقدمة كتابه : « حياة الصوفي المرسى ابن عربي وهي موضوع القسم الأول من هذه الدراسة قد استخلصناها مما ورد من نصوص تتعلق بحياته في كتبه خصوصا في كتاب الفتوحات المكية ، ودون أن نهون من شأن المعلومات القليلة التي يقدمها لنا من ترجموا لحياته فإننا نعتقد أن ما قدمه لنا ابن عربي نفسه أكبر أهمية » .

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٧ .

(٢) ابن عربي ص ٨٥ .

و « ابن عربي » لم يتحدث عن هذا اللقاء بينه وبين « ابن الفارض » كما تحدث عن غيره من اللقاءات التي تمت بينه وبين شيوخ كثيرين . وكما أغفل « أسين بلاثيوس » هذه الواقعة انكرها غيره من المستشرقين مثل « نيكلسون » و « ماسينيون » ينكر ذلك الدكتور محمد مصطفى حلمي قائلا : « ومن هذا ذهب المستشرق الانجليزي نيكلسون الى أن ابن الفارض وابن عربي لم يلتقيا قط ، كما ذهب الى مثله المستشرق الفرنسي الأستاذ ماسينيون ، وذلك في محاضرة نقد اقامها بقاعة الجمعية الجغرافية عن ابن الفارض والشعر في الشرق استبعد ان يكون ابن عربي في زيارته لمصر قد عرف ابن الفارض ، وإن كان كل منهما قد أحس بوجود صاحبها في عالم الشعر والتصوف » (١) .

والدكتور مصطفى حلمي يذكر ذلك بعد قوله : « نحن لا ننكر زيارة ابن عربي لمصر او المام بها ، ولكن الذي لا نستطيع التثبت منه هو ان يكون ابن عربي قد التقى حقا بابن الفارض ونشأت بينهما صلة شخصية تبودلت فيها الآراء الصوفية والانواق الروحية ، اذ ليس ثمة ما يثبت هذه الصلة اثباتا قاطعا » .

ونحن لا يمكننا اضافة شيء جديد الى ذلك ، ولكن يمكن أن نذهب الى رأى الذي يثبت امكانية هذا اللقاء وحدثه ، مستعدين من حرص « ابن عربي » الزائد على لقاء الشيوخ دليلا قويا على حدوث هذا اللقاء ، فإن المتتبع لرحلات هذا الشيخ الجليل يرى مدى شغفه بالتعرف الى رجال الوقت من الصوفية ، وفي كل مكان يحل فيه يبحث عن من يرى انهم حمل نظر الله في الأرض ، وابن الفارض لم يكن شيئا مغفورا من شيوخ الصوفية ، ولكنه كان علما من اعلامهم تشد اليه الرجال من كل مكان ، فليس من المعقول ان تسنح لابن عربي فرصة ثمينة كهذه ولا يفتتنها وهي فرصة وجوده في القاهرة .

(١) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١ .

على أن هذا اللقاء قد لا يكون حدث في القاهرة ، إذ من الجائز حدوثه في مكة ، ونحن نعلم أن ابن الفارض ، قضى في ظل الحجاز أكثر أيامه إشرافاً بانوار الفتح فيما بين سنتي ٦١٢ هـ و ٦٢٨ هـ في أواخرها أو ٦٢٩ هـ في أوائلها (١) وابن عربي يقينا كان يلم كثيراً بمكة في السنين قبل رحيله نهائياً إلى دمشق سنة ٦٢٠ هـ ، ففي هذه السنوات السبع السابقة على استقراره في دمشق لا يبعد أن يكون قد حدث لقاء بين الشيخين العظيمين ، ولعل ذلك هو الأرجح ، فإن ابن الفارض قبل رحيله إلى الحجاز لم يكن قد ألف بعد « تائيته الكبرى » التي يعتبر أن الفتوحات المكية شرح لها .

أما أغفال « ابن عربي » قصة هذا اللقاء فذلك سر من أسرار الصوفية يظهر في تصرفاتهم الغريبة في بعض الأحيان ، وقد يكون هذا الأغفال متعمداً من جانب « ابن عربي » لأن هناك من الأحاديث التي دارت بينهما ما لا يمكن الإباحة به أو الخوض فيه بين شخصين أحدهما سلطان العارفين والآخر سلطان العاشقين ، وبين العشيق والمعرفة تدق الأسرار وتتودد الأفكار .

أن هذا اللقاء ممكن من غير شك ، وكل ما أمكن أن يسجل منه هو هذا الحوار القصير الذي لا يؤدي إلى هتك سر أو كشف حجاب . هذا الحوار الذي دار حول شرح التائيته الكبرى وأن الفتوحات المكية خير شرح لها .

والتائيته الكبرى قصيدة طويلة اسمها « نظم السلوك » وكانت ثمرة من ثمرات الوجد والغيبة والدهش وغيرها من الأحوال الصوفية التي كانت تعرض لنفس ناظمها وتعتبر ترجمة ذاتية لحياة الشاعر الروحية (٢) ، وهي بوصفها هذا يمكن أن يصدق عليها قول

(١) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١ .

(٢) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٢١٢ .

ابن الفارض لابن عربي : كتابك الفتوحات المكية شرح لها . لأن الفتوحات تتجه هذا الاتجاه وفيها بيان توضيحي لما كان يمر به الشيخ الأكبر من مراحل روحية وأنواق وجدانية .

### منزلته لدى الملوك والأمراء :

ويمكن للمتتبع لحياة هذا الرجل العجيب الذي قضى حياته كلها منزكاً جسمه وقواه في رحلات دائمة مستمرة ، أن يدرك مدى الأحداث الهامة في حياته التي لم تخل من حيوية دافقة وحساس علمي بالغ وانتاج خصب وفير في كل المعارف الصوفية التي قبولت في بعض الأحيان بالانكار والمعارضة ، وقد رأينا لونا منها في أثناء مروره بالقاهرة ، والتي اشادت فيما بعد حتى حُرِضت الناس على عزم مطالعة كتبه وقراءتها بل ونادت بأحراقها ، وقد أدى ذلك إلى ضياع كثير من مؤلفاته التي لم يبق منها إلا أقل القليل .

ولكن حياته مع ذلك كانت مباركة عامرة زاخرة بجلائل الأعمال ، وقد بلغ الشيخ الأكبر لدى الملوك والأمراء منزلة عالية ، وصل إليها بالزهد ، وقد ورد عن الصوفية هذه الحكمة الخالدة : ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس : وكان « ابن عربي » كذلك ، فقد وجد الملوك فيه نموذجاً قريداً غير ما كانوا يرونه من العلماء والفقهاء ، ففي الوقت الذي يتنافس فيه هؤلاء للتقرب إلى أولى الأمر وأصحاب السلطة ، طمعاً فيما ينالونه منهم من منافع مادية أو أدبية ، كان هو ينفر من ذلك ، وقد وطد نفسه على الفرار من كل قيد يقيد حريته ولو كان هذا القيد من ذهب . يضاف إلى هذا عدم تجرجع بعض العلماء في اكتساب المال ولو كان على حساب الدين ، في حين أن الشيخ الأكبر كان يعمل للدين حساباً ويرعى له حرمة وقداسته ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي أغنى حياته على أساس قواعد في الوصول إلى حقيقة المعرفة ؟ .

ولنضرب مثلاً على ذلك حتى لا يظن أن هذا الكلام يطلق على علته : بلغ « ابن عربي » في نفس الملك الظاهر غازي صاحب مدينة حلب ، منزلة عظيمة ، وأصبحت له كلمة مسموعة لديه في الشفاعة لأصحاب الحاجات ، وكان الملك يقصده كثيراً في منزله ، وقد رفع إليه « ابن عربي » في مجلس واحد مائة وثمانين عشرة حاجة قضاهما الملك جميعها لأصحابها ، ومنها الاستشفاع لشخص كان متهما بتبدير مؤامرة لاغتيال الملك نفسه ، وكان من جملة بطانته فعفا عنه أكراما لشفاعة محيي الدين بن عربي فيه .

وقد غطى جلال الشيخ الأكبر على كل ما كان للعلماء والفقهاء من نفوذ في بلاط ذلك السلطان وكان هؤلاء لغلبة الهوى في نفوسهم . قد تركوا المحجة البيضاء وجنحوا إلى التأويلات البعيدة ، ليحقوقوا ما يريده الملوك من أغراض لهم فيها هوى محاولين بذلك الاستناد إلى نصوص شرعية رغم أن هذه الفتاوى التي يصدرونها ربما لا يعتقدونها . ولقد صرح الملك « غازي » لابن عربي : بأن الأمور التي تتكرونها على ما أقدمت على منكر منها - رغم علمي بتكرانه - لا يفتوى فقيه وخط يده يشهد على ذلك . وقد بلغ من جرأة أحدهم أن افتاء بأنه يجوز له أن يقطر في شهر رمضان ويكفيه أن يصوم أي شهر في السنة . فليس رمضان بالذات هو الذي فرض على الناس صومه (١) .

وعن العجيب أن يتهم أمثال هؤلاء الفقهاء « ابن عربي » وأضرابه ممن هم على الجادة بالزيف والفساد والزندقة ، ويبرئون أنفسهم من هذه التهم التي هم أولى بها منهم .

وقد مر بنا كيف أن ملك « قونية » كيكائوس الأول خرج

بنفسه لاستقبال ابن عربي وأكرمه وبالغ في أكرامه وأهداه داراً نفيسة تقدر بمائة ألف درهم (٢) .

أما صاحب حمص « أسد الدين شيركوه » فقد أكرم مقدمه وأراد أن يستقيفه عنده ورتب له كل يوم مائة درهم (٣) .

أما الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل الأيوبي صاحب دمشق ، فقد كان له شرف جوار الشيخ الأكبر فترة طويلة تقدر بحوالي ثمانية عشر عاماً ، وقد أكرم هذا الملك « ابن عربي » أكراما كبيراً ، وكان ينظر إليه نظرة المريد إلى أستاذه ، وقد أذن له « ابن عربي » أن يروي عنه كتبه - ونقل المقرئ عن الفيروزبادي : « وقفت على أجازة كتبها للملك المعظم . فقال في آخرها : وأجزته أيضاً أن يروي عن مصنفاتي وعن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمئة مصنف » (٤) .

وقد حاول ملك « قونية » استقدامه مراراً إليه ، وكان يكتب إليه يستشير به في كثير من الأمور ، وكان « ابن عربي » يرد عليه بما يراه صالحاً للمسلمين ، وعن ذلك مثلاً هذه الرسالة التي كتبها ووردت في الفتوحات : « عليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الإسلام بينهم في أعيانهم ، ولا تقل : هذا ذو سلطان وجاء ومالك كبير وهذا صغير وفقير وحقير ، ولا تحقر صغيراً ولا كبيراً في ذمته ، ولجعل الإسلام كله كالشخص الواحد ، والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص ، وكذلك هو الأمر الآن بالإسلام ما له وجود إلا بالمسلمين كما أن

(١) فتح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) فتح الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) فتح الطيب ج ٧ ص ١٢٩ .

(٤) راجع ابن عربي ص ٧٨ وما بعدها .

الاسلام ما له وجود الا بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة» (١) .

ومن هذه الرسالة يبدو مدى حرص « ابن عربي » على مصلحة المسلمين ، كما يبدو منها الخلاص النصيح للملك الذي كان يلجا اليه مستشيئاً فكان يجده دائماً عند حسن ظنه ، ويرد عليه بما يعينه على سياسة رعيته واصلاح شأن المسلمين .

ولم يكن « ابن عربي » يرهب الخلفاء والحكام ، لأنه كان مؤيداً بصولة الحق ونور المعرفة بل كان الأمر بالعكس ، فقد كانوا هم الذين يرهّبونه ويعملون له الف حساب ، لشخصيته هو أولاً ثم لقوة نفوذه بين أتباعه وحميديه ، وما كان « ابن عربي » من الأشخاص المغامرين الذين يفكرون في أحداث ثورات أو اضطرابات ضد أولى الأمر ، ولكنه كان زاهدا متواضعا مطيعا ، متفدا لأمر الله في طاعة أولياء الأمور ، وهو بما أعطاه الله من بصيرة أصبح لزاما عليه أن يقوم بواجبه الديني كاملا بما في ذلك المشاركة في اسداء النصيح والتوجيه الكريم لمصلحة الاسلام والمسلمين كما رأينا في رسائله العديدة ونصائحه المختلفة للملوك .

حدث مرة في بغداد أن كان يسير بين طائفة من تلاميذه ، ومر عليهم الخليفة في مركبه ، فامر « ابن عربي » أتباعه ألا يبدؤوا بتحية الخليفة جريا على العادة التي كانت متبعة ، فانصاعوا لأمره ، حتى حاذاهم الخليفة فبداهم هو بالسلام قردوا عليه .

وابن عربي لم يكن يريد من ذلك الانتقاص من قدر الخليفة ، ولكنه أراد أن يعيد إلى المسلمين تقليدا شرعيا في التحية تناساه الناس أمام جبروت الخلفاء ، ذلك التقليد هو أن يبدأ الصغير الكبير ، والراكب المشي ، والمشاي الجالس بالتحية ، وقد كان

(١) ابن عربي ص ٧٤ .

الخليفة ممتطيا صهوة جواده وهم راجلون ، فيجب على الخليفة أن يكون هو البادئ بالتحية بناء على هذا الأدب العالي الذي وضعه الاسلام .

على أن هذه المنزلة التي لقيها « ابن عربي » في الشرق لدى الخلفاء ، كان يقابلها بعض التحفظ من ملوك المغرب ، ويمكن تعليل ذلك بأن السلسلة في ذلك الوقت كانت في يد الموحدين ، وكانوا يصدد تكوين دولتهم في الأندلس وتوطيدها في أفريقيا ، وعشائر الدول عادة يلقون من كل من يظن له نفوذ موقف التحفظ ، لا سيما وهم يدركون أن للدين سطوته ورميته ، وأن التصوف بخاصة يحمل أصحابه على التضحية والفداء ، وهم لا يريدون إثارة الحمية الصوفية في النفوس ، حتى لا تتحول مع الزمن إلى ثورة عاتية ربما تقضى عليهم وتبدد دولتهم ، هذا سبب ، وسبب آخر هو أن سلطة الفقهاء في ذلك الوقت كان لها تأثير مضاد ضد الصوفية ، وهم ما زالوا يعملون لواء الخصومة للتصوف واتصاره ، وقد استطاعوا بتأثيرهم أن يوغروا صدر السلطان ضد شيخ من شيوخ التصوف هو « ابو مدين » . وقد أراد ابن عربي أن يزيل ما الصق بهذا الشيخ المجاهد من اتهامات زينته له الفقهاء فدارت بينه وبين السلطان « يعقوب المنصور » مناقشة في شأنه انتهت على غير ما كان يرجو « ابن عربي » فخرج غاضبا من عنده .

على أن ما فقدته الشيخ الأكبر عن منزلة لدى هؤلاء لم يكن له أدنى تأثير في نفسه ، وقد عوضه الله عن ذلك بما هو أعز وأرفع لدى جميع ملوك أهل المشرق ، حتى إذا ما قضى وجد هؤلاء الملوك أنفسهم ملزمين بأن يتابعوا وإجبههم تحوه ، فأولوا مدقنة

عناية فائقة . وتعهد بذلك الخلفاء المتعاقبون على دمشق وبخاصة العثمانيون الذين جددوا هذا المزار مرارا . وكان لهم في الشيخ الأكبر اعتقاد خاص . يذكر الشعراني سببه وهو تنبؤه بسلطان العثمانيين<sup>(١)</sup> . وقد أجزيت عليه الأوقاف وأصبح مزارا مشهورا يقصده الناس من كل مكان . وبنى عليه السلطان سليم خان مدرسة عظيمة<sup>(٢)</sup> .

## أخلاقه

أثنى الشيخ الأكبر حياته في الطريق الصوفي حتى وصل الى غايته ، وعبى الطريق الصوفي قائم على الأخلاق ، ولعناية التصوف بها جعلها أساسا ووسيلة وغاية ، والصوفية يحكمون على مراتب بعضهم بما يرونه من أخلاق ، لذلك يقولون : كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه . ويضعون للتصوف تعريفات مختلفة لا تخرج في مجموعها عن التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل .

والشيخ الأكبر رائد عظيم من رواد هذا الطريق الذي نظر اليه المتصوفة وغيرهم نظرة أكبار واعظام ، وغنى عن القول بأن هذه المنزلة وصل اليها بما كان عليه من استقامة على الجادة وصديق في الطلب وورع كامل بلغ الى حد لا يمكن أن يصل اليه الا من ندر وأخلاق كريمة حببت فيه الخاص والعام .

وقد كان لنشأته الأولى في أسرة سالحة تقية الى جانب أرومته النقية الى جانب مصاحبته كل من صاحبه التوفيق أثر كبير في تلك النفحات العطرة الكريمة التي تضيوع بها هذه الشخصية المحببة .

(١) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) فتح الطيب ج ٧ ص ١٤٩ .

والشيخ الأكبر حقيق بهذا الوصف الذي وصفه به « ابن مسدد » أنه كان جميل الجملة والتفصيل . ولكن هناك مناقب بارزة في حياته جديرة بالوقوف عندها قليلا .

فمن ذلك زهد الشديد الذي كان مضرب الأمثال . ذلك الزهد الذي رفعه في عين الناس . والزهد عند الصوفية منازل ودرجات . أعلاها الزهد فيما سوى الله . وقد كان زهد الشيخ الأكبر من هذا النوع الذي جعله يهجر كل نعمة ويترك كل راحة . ويحرق كل لذة . ويضحي بكل غال في سبيل الظفر بأمنيته .

ولقد توفر المال بين يديه فما أمسك منه شيئا . ورغب الملوك والسلاطين في أن يؤمنوا له حياته ويوفروا له كل أسباب الراحة والنعمة . ولكنه رغب عن كل ذلك . وأطلق نفسه من كل أسر . وانطلق يحلق في الأجواء .

ومرت عليه لفترة من حياته زهد فيها معايشرة زوجته عملا بنصيحة شيخه « المغاوري » التي سمعها من أحد تلاميذه . والتي ينهى فيها عن معايشرة النساء . ولم يقبل عليها بعد ذلك إلا امتثالا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أمره بإعطاء المرأة حقها من المباشرة الحسنة . فهو يقول : « كنت من أكره خلق الله تعالى في النساء في أول دخولي إلى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحو من ثمانين عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام . وكان تقدم عندي خوف المقت لذلك ، ويقصد بالمقام مقام امتثاله لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الزواج ومعايشرة الزوجة . وخاف على نفسه المقت لأنه خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك . والزهد رأس الفضائل لا سيما إذا كان عن قدرة .

ومن صفات « ابن عربي » الجديرة بالتمسجيل كرمه الذي كان مضرب الأمثال . وهو كرم متوارث من أسرته الطائفة المشهورة زكاه بينه وورعه وخلقه وتصونه . والتصوف لا يعقت شيئا كما

يعقت البخل . فانه لم يجيب في شيء بعد الإيمان كتمحيبه في الانفاق والبذل . ولم ينقر بعد الشرك كما نقر من البخل والشح لأنهما من أسباب سوء الخلق .

وكرم « ابن عربي » ارتفع إلى درجة الأيثار . وهو أرفع منازل الجود . « أمر له ملك الروم في ( قونية ) مرة بدار تساوي مائة ألف درهم فلما نزلها وأقام بها . حر به في بعض الأيام سائل . فقال له : شيء لله . فقال : مالي غير هذه الدار . خذها لك . فقتلها السائل وصارت له » (١) .

وكان ينفق عطائه اليومي جميعه على الفقراء والمساكين وكان كثيرا قدر بمائة وثلاثين درهما .

ولقد أدرك « ابن عربي » المعنى الصوري للمصدقة . فانه ليس مجرد إعطاء الفقير . ولكن لها معنى أبعد من ذلك . تعلمه من شيخه « يوسف الأسنجي » الذي يروي عنه هذه القصة : « وقفت أنا وعبد صالح معي يقال له : يوسف الأسنجي على سائل يقول : من يعطى شيئا لوجه الله . ففتح الرجل صرة دراهم كانت معه . وجعل ينتقى له من بين الدراهم قطعة صغيرة ينقعه للسائل . فوجد ثمن درهم . فأعطاه إياه . وهذا العبد ينظر إليه فقال لي : يا فلان . تدري على ما يفتش المعطى ؟ قلت : لا . قال : على قدره عند الله . لأنه أعطى السائل لوجه الله . فعلى قدر ما أعطى لوجهه ذلك قيمته عند ربه » (٢) .

ويصل الكرم بأبن عربي إلى درجة التصديق بثواب ما يعمل من طاعة . ورغبة في جزاء السيئة بالحسنة . وهذا منتهى المروءة . فان مقابلة الاحسان بالاحسان أمر طبيعي أما مقابلة الاساءة بالاحسان فذلك أمر لا يكون إلا من سوابق الهم . ولا يدل الا على عظم اتساع القلب والارتفاع فوق مستوى البشرية .

(١) فتح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) ابن عربي ص ٢٦ .



جاء في نفع الطبيب : « قال الشيخ محيي الدين : « أنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في أمور عظيمة ، فقلت : هذه قد جعلها الله سببا لخير ووصل إلى فلأكافئها ، وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمدت في رجب لها وغنيا ، ففعلت ذلك ، فلما كان الموسم استبدل على رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده فقال : رأيت « باليتبع » في الليلة التي بت فيها كأنا ألقا من الأبل أو قارها السلك والعنبر والجوهر ، فعميت من كثرتة ثم سألت : لمن هو ؟ فقلت : هو أحمد بن عربي يهديه إلى فلانة - وسمى تلك المرأة - ثم قال : وهذا بعض ما تستحق . »

« قال سيدي ابن عربي : فلما سمعت هذه الرؤيا واسم تلك المرأة - ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم معنى ذلك - علمت أنه تعريف من جانب الحق ، ولهممت من قوله : أن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة ، وقلت : اصدقيني ، وذكرتك ما كان من ذلك ، فقلت : كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف ، فذكرتك الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت في نفسي : اللهم اني اشهدك اني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما ، قال : فعلمت أن الذي وصل عنى إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم » (١) .

فهذه القصة تفهمنا مسارعة ابن عربي إلى اهداء ثواب أعماله إلى امرأة سبق إلى طئه - بناء على ما أبلغه - أنها أساءت إليه ، فأراد أن يكافئها على ذلك ، ولو كان ما يهديه إليها شيئا ماديا لكان جديرا بالفضل ، فما بالك حين تعلم أن الهدية ثواب طاعة وهو أحرص ما يكون الإنسان عليه ؟ فلن يدل ذلك إلا على نهاية المروءة

(١) نفع الطبيب ج ٧ ص ١٢٧ .

والكرم والايثار يقول المقرئ : « وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادخر منها شيئا ، وقيل أن صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهما فكان يتصدق بالجميع » (١) .

والقصة المتقدمة تسلمنا إلى فهم آخر في اخلاق « ابن عربي » هو الاحسان إلى من أساء والعفو الجميل الصادر عن قلب صافي خال من أي ذرة من ثورات الحقد أو الغل أو الكراهية - وهذا أوفى درجات الصلح .

وقد وطن الشيخ نفسه منذ أن نذرهما للطريق الصوفي أن يكون مقتاتا للخير مغلانا للشر ، محتسلا للأذى ومعينا للاخوان ، وتلك ثمرة من ثمار هذا الطريق وتوجيهات أئمة التصوف ، ولن يكون الصوفي صوفيا إلا إذا كان ذا قلب واسع يعملؤه الصبح وتويره الرحمة ، والصوفي في ذلك ينظر إلى نبيه الكريم الذي وصفه الله عز وجل بهذه الصفات العالية « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٢) « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٣) ويحدث هو عن نفسه قائلا : « انما أنا رحمة مهداة » .

جاء في شذرات الذهب : « مما وقع له أن رجلا من دمشق فرض على نفسه ان يلعبه كل يوم عشر مرات ، فمات ، وحضر ابن عربي جنازته ثم رجع وجلس في بيته وتوجه للقبلة - فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه قلم يأكل ، ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء - فالتفت مسرورا ، وطلب العشاء وأكل : فقبل له في ذلك » فقال : التزمت مع الله اني لا أكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي

(١) نفع الطبيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) التوبة ١٢٨ .

(٣) الانبياء ١٠٧ .

يلعننى ، وذكرت له سبعين ألف لا اله الا الله فغفر له « (١) ثم يقول ابن العماد : « وقد أودى الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته مما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك ، وذلك من غرر كراماته » وقد سبق الإشارة الى ذلك الاخبار وتعقيبه عليه بقوله : « فعلمت أنه لا بد أن يبتلىنى الله بكلام في عرضى من قوم فأعاملهم بالحلم » (١) .

هذا وشخصية الشيخ الأكبر صفحة مشرقة بكل ما يملأ النفوس أجلا وأعظما ، وفي كل ناحية من نواحي العظمة الخلفية تجد له قدما راسخة وأثرا مشهورا ، مما يطول بيانه ويعجز الوفاء به ، وقد سبق ابن العماد في قوله : « من تأمل سيرة ابن عربى وأخلاقه الحسنة وإنسالخه عن حظوظ نفسه وترك العصبية حملته ذلك على محبته واعتقاده » (٢) .

ومن أقوال ابن عربى الماثورة التى تدل على سعة قلبه وجميل عقوه : « شرط الكامل الاحسان الى أعدائه وهم لا يشعرون تخلفا بإخلاق الله ، فانه دائم الاحسان الى من سماهم أعداء مع جهل الأعداء به » (٣) .

و « ابن عربى » رغم الكرامات التى كانت تحدث على يديه ، فانه لم يكن يعبأ بذلك أو يعلق عليه أهمية تذكر ، وهذا يضيف الى أخلاقه صفة أخرى ، هى صفة التسامى الى أعلى مدى يمكن أن تصل اليه روح ، وكثيرا ما كان ينصح أتباعه ومريديه ألا يتطلعوا الى شيء من هذه الخوارق أو الكرامات ، لأنها كثيرا ماتقف عقبة في طريق وصول المرید الى الكمال ، فان حدث شيء من ذلك عفوا

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٢ .

(٢) (٣) الرجوع السابق ص ١٩٧ .

فعلية أيضا الا يلتفت اليه بل عليه أن يستغفر منه لأنه امتحان في قالب اكرام .

والكرامة الحقيقية في نظر « ابن عربى » وأمثاله هى الاستقامة على الجادة ، والمضى قدما الى الامام دون الالتفات الى أى عارض يعترض الطريق ، وعن نصائحه في ذلك : « لا تطلب من الله في خلوتك سواء ، ولا تعلق الهمة بغيره ، ولو عرض عليك كل ما في الكون فخذ به بآداب ولا تقف عنده ، وصمم على طلبك فانه يبتليك ، ومهما رقت مع شيء فأتك ، وإذا حصلته لم يفك شيء » وقد عبر عن هذا المعنى صوفى آخر من تلاميذ الشاذلى هو ابن عطاء الله السكندرى في حكمة من حكمه الرائعة بقوله : « ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها الا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات الا ونادته حقائقها : انما نحن فتنة فلا تكفر » (١) .

(١) شرح المرتضى على حكم ابن عطاء الله السكندرى .

## ابن عربي الأديب

**بيئة الأندلس والأدب :** سبق الانسابة الى طبيعة الأندلس الجميلة المحببة الى النفوس فقد أحاطت بها المياه من أعظم جوانبها ، وتمتعت بتربة خصبة صالحة لما نما فيها من اشجار ياسفة وأزهار مثقحة وثمار يانعة ، وتعددت فيها الأنهار التي من أهمها النهر الكبير ونهر تاجة ، وذلك الى جانب ما يوجد فيها من جبال متدرجة تثمر على سفوحها مختلف الزروع وشتى الثمار ، وقد تغنى كثير من الشعراء والأدباء بمفاتن الأندلس ووصفوا جمالها الأخاذ الساحر ، وتلقنوا في عرض هذه الصور في منظومات رفيعة وتعبيرات أنيقة •

وقد كانت هذه البيئة مهدا صالحا لإخراج مئات الشعراء والأدباء الذين صقلت مواهبهم تلك المناظر الفاتنة وأبرزت استعداداتهم هذه المشاهدات الباهرة :

**استعداد ابن عربي :** وكان هذا كفيلا بتهيئة الفرصة لظهور موهبة كموهبة « ابن عربي » الذي هيأته أرومته العربية الأصيلة الشاعرة فزوته بالاحساس المرفف والانفعال الصادق ، والتجاوب مع كل ما يقع تحت سمعه وبصره من فن مطبوع ومصنوع •

والتقى ابن عربي في صباه بطائفة من العلماء الأجله «الفنانيين» الذين يعيرون الأدب ويتذوقونه ويقولونه . فاستأذنه في القراءات « أبو القاسم الشراط » كان بصيرا باللغة وأدائها وله حظ من قرض الشعر . واستأذنه « أبو محمد عبد الحق الأشبيلي » كان أدبيا شاعرا ومن شعره :

ان في الموت والمعاد لشغلا

لأولى الدين والنهي وبلاغنا

فاغتم خطتين قبل المنابا

صحة الجسم يا أخى والفراغا

وغيرهما من أسانئذه كان له ذلك الحظ من الأدب ، وشيوخه في التصوف كان أغلبهم أدباء فنانيين لهم الباع الطويل في فنون النظم والنثر ، ومن بينهم « المارثلى وأبو مدين » وكلاهما له أدب جيد رفيع .

كل ذلك كان له اثره في صقل موهبته الأدبية وإنماء استعداداته الفنى مما جعله شاعرا مجيدا . يضاف الى ذلك اقباله على قراءة كثير من كتب الأدب وتذوقه والانتفاع بها انتفاعا كبيرا . وهو يحدث في مقدمة كتابه « محاضرة الأبرار » عن كثير من الكتب التى قرأها ، ومن بينها في فن الأدب الكتب الآتية : الأمانى لأبى المعالى البغدادى ، نزيل قرطبة ، وكتاب ربحانة العاشق لأبى القاسم المسور ، وكتاب روضة الأئس لأبى زيد السهيلي ، وكتاب الكامل للمبرد ، وزهرة الأدب للحضري ، والحاسن والأضداد الجاحظ ، ومعانة العقل للحلوى ، والحامسة لأبى تمام ، والحامسة الحلوية وغيرها .

وهذا الاستعداد هو الذى كفل له أن يتولى كتابة الإنشاء في ديوان « اشبيلية » ولا يتولى هذا المنصب الا من كانت لديه الموهبة لذلك .

وقد كان ابن عربي منذ نشأته ميالا الى الأدب ، وكان يشارك في مجالسه وله دراية كاملة بفن القول يشهد لذلك كثرة ما اثر عنه من انتاج أدبى رائع في فن النظم والنثر .

اعجابه بالشعر الجيد ومشاركته في مجالس الأدب : ولقد كان يحبه بيت من الشعر فينظم على منواله ، من ذلك مثلا ما يرويه الأستاذ عبد العزيز سيد الأمل : انشد بعض الصوفية ابن عربي بيتا مقفورا فاعجب به ، فعمل أبياتا وضعها هذا البيت وهو الرابع من القطعة الآتية :

قف بالطلول الدارسات بلعلع

واندب احبتنا بذاك البلقع

قف بالديار وتاجها متعجبا

منها يحسن تلطف وتفجع

عهدي بمثلك عند بانك قاطعا

ثمر الخدود وورد روض ائنع

« كل الذى يرجو نواله امطروا

ما كان برقتك خلبا الامعى »

قالت : نعم قد كان ذلك الملقى

في ظل افئنانى بذاك الموضع (١)

« وابن عربي » يتمتع بملكة نقد صافية تعينه على تمييز الجيد من الكلام ، وكتابه محاضرة الأبرار خير نموذج لذلك نكتطف من زهراته ما يأتى :

يقول ابن عربي : مما جاء في الجود قول الشاعر :

(١) مجلة منير الاسلام عدد ربيع الاول - ١٣٨٦ هـ .

فتى عاهد الرحمن في بذل ماله  
فلمست تراه الدهر الا على العهد  
فتى قصرت اماله عن فعاله  
وليس على الحر الكريم سوى الجهد

ويعلق على ذلك بقوله : هذا المديح اقرب للديانة من الكرم  
فان عطاءه انما هو من اجل الوفاء بعهده مع الله ، حتى لا يكون  
من الذين ينقضون عهد الله ، والكرم سجيته الكرم . فلا يحتاج الى  
القسم عليه الا لعله نفسه ، لما وثى هذا الشاعر مدح هذا في الكرم  
ما تصور له في خاطره . فهذا اللفظ دون ما في القصد .

ومن جيد الشعر ما قال القائل :

لئن ساءني ان تلقتني باسائة

لقد سررتني اني خطرت ببالكا

ويعلق : واحسن منه لو قال ما قلنا :

لئن سررتني ان تلقتني بمسائة

فما كان الا ان خطرت ببالكا

لان الاول قد اقر بانه اساء ثم اعتذر .

ومن احسن الشعر ما قال الآخر في باب الشكوى :

فالليل ان وصلت كالليل ان هجرت

اشكو من الطول ما اشكو من القصر

ويعلق : احسن منه ما قلنا :

شغلي بها وصلت بالليل او هجرت

فما ابالي اطال الليل ام قصرا

فان الاول شغله بطول الليل وقصره من اجلها . فهو غاقد لها  
في زمن الاشتغال بغيرها والثاني شغله بها ومن سواها تبع (١) .  
وهذا الكتاب غاص بمثل ذلك وغيره من ألوان القطف .

ومن أمثلة مشاركته في مجالس الأدب ما يحكيه القرى نقلا عن  
العماد بن النحاس : « انه كان في سنج جبل قاسيون على مستشرق ،  
وعنده الشيخ محيي الدين والغيث والسحاب عليهم . ودمشق ليس  
عليها شيء ، قال فقلت للشيخ : اما ترى هذه الحال ؟ فقال : كنت  
بمراكش وعندى ابن خروف الشاعر يعنى ابا الحسن على بن محمد  
القرطبي القيذاقي ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه  
المقالة ، فانشدني :

يطوف السحاب بمراكش

طواف الحجيج ببیت الحرم

يروم نزولا فلا يستطيع

لسفك الدماء وهتك الحرم (٢)

مائوراته الأدبية :

ومائورات ابن عربي « الأدبية كثيرة ، في مقدمتها دواوين  
شعره ، ويذكر منها « بروكلمان » الديوان الأكبر - وديوان  
الأشواق وله اسم آخر هو « الهجاء الأمد على ترتيب حروف  
الأبجد » وديوان المرتجلات ، والقصيدية الثائية ، وقصيدية في  
المناسك ، وترجمان الأشواق وشرحه عليه المسمى : بذخائر الأعلان  
في شرح ترجمان الأشواق ، وغير ذلك من الكتب . ومن عيون

(١) معاصرة الإبرار ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٦ .

أشاره الأدبية كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، وهو كتاب نفيس جمع « ضروريا من الآداب وقنونا من المواقف والأمثال والحكايات النادرة ، والأخبار السائرة ، وسير الأولين من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والأمم وأخبار ملوك العرب والعجم ومكارم الأخلاق » (١) وفيه يقول : محاضرة الأبرار خير كتاب ، لب اللباب ونزهة الألباب .

نماذج من شعره : وشعر « ابن عربي » يدور أغلبه حول المعاني الصوفية ، وإن كان بعض ما فيه من قصائد تدور حول النواحي الاجتماعية كهذين البيتين اللذين وردا في أجابة سؤال سأل به بعض أصحابه له : كيف حالك مع أهلك ؟ فأجاب :

إذا رأى أهل بيتي الكيس مقلنا

تبسمت وندت مني تمازحني

وإن رآته خليفا من دراهمه

تكرهت وانثلت عنى تقابحني

وهي قضية اجتماعية نراها سائدة في مختلف المجتمعات فقد أجابه السائل : كلنا ذلك الرجل .

وبالرغم من زهد « ابن عربي » إلا أنه رأى حب المال سائدا كما رأى أثره في مختلف مناحي الحياة بل هو عصبها ، ولكن يجب ألا يكون شاعلا عن الله فهو ينصح بأن يكون الإنسان غنيا بالله لا بالمال : -

بالمال يتقاد كل صعب من عالم الأرض والسماء

يحسبه عالم حجابا لم يعرفوا لذة العطاء

(١) محاضرة الأبرار ( المقدمة ) .

لولا الذي في النفوس منه لم يجب الله في الدعاء  
لا تحسب المال ما تراه من عسجد مشرق الضياء  
بل هو ما كنت يا بيتي به غنيا عن السواء  
فكن برب العلاء غنيا وعامل الخلق بالوفاء

ومن القضايا الاجتماعية البارزة في كل عصر هي أن يتولى بعض الأمور من ليس أهلا لها ، وإن يرتفع الحقيير ويتضع العظيم ، وهذه سنة الكون : -

قد ثاب غلماننا علينا فما لنا في الوجود قدر  
أذنا بنا صيرت رهوسا ما لي على ما أراه صير  
هذا هو الدهر يا خليلى فمن يقاسيه فهو قهر

وله في الفخر قصائد مر علينا طرف منها .

و« ابن عربي » كشاعر مطبوع نشأ في بيئة الأندلس المزهرة لا ينسى الإعجاب بالطبيعة ، وما أشد فيها من شعر كما يصوغ هو في ذلك : فمما أعجبه وضمه كتابه محاضرة الأبرار ، قول أبي علي ابن شبل في وصف الربيع : -

عرائس الأرض تجلى في غلاتها

وفي حلى عليها صاغها الديم

تسكن في حلل الاتواء مذهبها

في كل حاشية من نسجها علم

مر من الاقصوان الغض زينه

حمر اليواقيت في المنتور ينتظم

كأنما بالسماء الأرض شامته

تبكى السماء وثغر الأرض يتشم

وأما قول ابن عربي فهو :

أما ترى الروضة الغناء تضحك إذ

جادت على الأرض بالأزهار أتواء

تبسم الأرض إذ تبكى السماء فهل

بين السماء وبين الأرض شحناء

لا والذي بضروب الزهر أضحكها

ما ثم شحناء لكن ثم أشياء

إن السماء تقول الزهر من زهرى

والأرض تأبى الذى قالته والماء

وابن عربي زاد على ابن شبل جمال التعليل .

المعاني الصوفية في شعره :

ولكنه في شعره شغل بالتصوف كما شغل به في غيره من الكتب ، ولذلك حفل إنتاجه بهذه المعاني التي دارت حول الشوق والمحبة والانس والفناء والبقاء وفنون المعرفة التي كشف له عنها أو تذوقها ، وغير ذلك من المصطلحات التي حفلت بها كتب التصوف .

وقد تحا في شعره منحنى الرمز كغيره من الصوفية لأنه ضمن بأسراره أن تنتهك ، وتلك عادة الصوفية في التعبير عن انواقهم . ومن هذا اللون الرمزي قوله في محاضرة الأبرار : -

طلع البدر في دجا الشعر	وسقى الورد نرجس الخفر
غادة تاهت الحسان بها	وزها نورها على القمر
هي أسنى من المهابة سنا	صورة لا تقاس بالصور
فلك النور دون أخصصها	تاجها خارج عن الإكر

أن سرت في الضمير يجرحها

ذلك الوهم كيف بالبصر ؟

لعبسة ذكرنا يذوبها

لطلقت من مسارح النظر .

ومن ذلك قوله في ترجمان الأنواق :

غادروني بالأنيل والثقا

اسكب الدمع واشكو الحرقا

بابي من ذبت فيه كمدا

بابي من مت مته فرقا

حمرة الخجلة في وجنته

وضح الصبح يناغى الشفقا

قوض الصبر فطنب الأسى

وأنا ما بين هذين لقي

من لبثي من لوجدى دلتى

من لحزنى من لصب عشقا ؟

كلما ضئت تباريح الهوى

فضح الدمع الهوى والأرقا

فإذا قلت : هبوا لى نظيرة

قيل : ما تمثع الا شفقنا

ما عسى تغثيك منهم نظيرة

بلى اللمح برق برقنا

لست أنسى إذ حدا الحادى بهم

يطلب البين ويبقى الأبرقا

نعقت أغرية البين بهم

لا رعى الله غرابا نعتنا

ما غراب البين الا جمل

سار بالأحباب تصما عتقا

ولا ينكر منك رقعة هذه الأبيات وعذوبتها ولطف معانيها ، ولو أنها انصرفت الى القول الحمسى لصورت كل ما يمكن تصويره من ألم البعد والفرق الى جانب التحسر على جمال المحبوب الذي اصطيفت وجنته بعمرة الخجل ، ويود لو يقبضه بروحه وبأبيه ، الى غير ذلك من معاني الحب واقاعيله في الأرواح والقلوب ، ولقد عرض ذلك في صور تغذيها العاطفة ويقويها الخيال ، فهو قد ذاب من ألم الفرق ، وهو قد صور الصبر خيمة قوضت ، وصور الأسى حقيما ، وجعل الدمع فاضحا مواء ، ونظرة المحبوب

ما هي الابرق يبرق ، وحمرة النخل في الوجنة البيضاء ما هي  
الا اجتماع الشفق ببياض الصباح .

ولكنها منصرفة الى المعاني الروحية التي يوضحها الامتياز  
عبد العزيز سيد الامل بقوله :

« وابن عربي يشير الى الروحانيات بالمغادرين والمسافرين ،  
وحزنه وكده ودمعه وخوفه كل ذلك من مفارقة الروحانيات  
اللطيفة لجسده الثقيل ، وتركها له مرتبها بهيكله مقيدا فيه ،  
وهو يستغيث بالروح الكلي ليظل قلبه متصلا بالتنزلات الالهية  
التي تبعته وتحييه والاشارة بمعالم الجمال الى التجلي على القلب  
ووقوع الاستحياء فيه من هبة التجلي ، وليس الصبر والاسى  
الا لفحات من الشوق تصيب القلب فلا احتملها الا بما يعين ،  
وهو كلما حاول القيام في مقام الكتمان الجاه الشوق الى البوح  
والاعلان ، واذا لم ينطق به لسانه نطقت جفونه ، واذا تمنى نظرة  
منع منها . وهو يحسب انه منع قهرا ، ولكنه اشفاق به ، واذا  
ارخيت الحجب بين المسبحات وبين الخلق فرحة بهم واشفاقا  
عليهم ، ولو رقت هذه الحجب ، وكشفت هذه الستور لاحتقت  
مسبحات وجهه » .

« والنظرة الواحدة لو تمكن الانسان منها مطفية تثير النفس  
الى نظرة اخرى بعدها ، ومثلها في فعلها بالقلب مثل فعل ماء  
البحر بالظمان كلما شرب ازداد عطشا . ولم يشع الصلوات  
الروحانيات التي جالست في الله تعالى ثم عرجت اليه شاهدة  
بقلة وجهه ودابه في العبادة والطاعة ، وكان عروجها الى الأبرق  
اشارة الى المشهود الذاتي ، واما الاشارة بالبرق فللنور الذي  
ينسكب خاطفا ثم يسرع زائلا عن الحضرة والمكان .

« والتكنية بالأغربة عن الامور التي خلفته عن العروج مع  
هذه الروحانيات وتركته مقيما في حبس الجسد لا يسمى الى  
مقام العبودية التي هي غاية السمو والارتقاء ، وليست هراكب  
هذا السمو الا الهمم التي اعدت للوصول ، فمن بذلها وزكب  
نجايتها سارت به الى المكانة التي تتقدم فيها الاسماء وتضعحل  
الرسوم وتفيض النعم والتجليات من الهى القيوم » (١) .

ولقد دعا ابن عربي السلميين والقارئين الا يقفوا عند حدود  
ظواهر الألفاظ بل عليهم ان يتعمقوا في فهم مضمونها وأسوارها  
حتى يدركوا ما فيها من جمال وأذواق وهو يقول في ذلك : -

كل ما اذكرك مما جرى      ذكره او مثله ان تفهمها  
منه اسرار وانوار جلت      او علت جاء بها رب السما  
فاصرف الخاطر عن ظاهرها      واطلب الباطن حتى تعلمها .

ولقد صاغ ابن عربي في مختلف معاني الحب ، فمن ذلك قوله  
في النحول : -

صيرني حبك معقولا      بمكمه وكنت محسوسا  
لظفت حتى لا يراني الهوى      فلم يجد عندي تعريسا (٢)

ومن قوله في اتحاد الحب في الهوى وهو من المعاني الدقيقة : -  
ان الهوى ما انا للحب حامله

والحكم للحب في الأشخاص ليس لنا

مثل الصفات لدى قوم اشاعرة

فلا الهوى هو غيبي لا ولا هو انا

(١) منبر الاسلام عدد جمادى الآخرة ١٢٨٦ هـ .

(٢) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ١٥٠ .



ان الهوى وأنا بالعين متحد

فان امت فيه وجدا او ائتس قينا

لولا الجمال الذى بالحب كلفنا

لم يهلك الوجد قلب الصب واليئنا

ان « النظام » لتدري ما افود به

وقد اشرت اليها مرة : يعنى «(»

وله في معنى معاتبة القلب والبصر :

تقول عيني لقلبي : ان شكره قد

رسي الجفون يذم الوجد والسهو

فقال قلبي لطرفي : لا تقول كذا

بل انت عرضتني للفكر بالنظر

لولا الجمال الذى القت نواظركم

سواء في خلدي لم تبيل بالفكر

فالعيب للقلب جود من معاتبة

وانما العيب في التحقيق للبصر

وها انا حكم بالعدل بينهما

لعلنا بالذى فيه من الخير «(»

ولابن عربى قريحة شعرية تعينه على الارتجال . فقد حدثوا انه قال مرة هذا البيت : -

يا من يرانى ولا اراه

كم ذا اراه ولا يرانى

(١) محاضرات الابرار ج ٢ ص ١٥٠ .

فانكر عليه احد تلامذته ذلك وقال له : كيف تقول : انك تراه ولا يراك ؟ فانشد على الفور مرتجلا :

يا من يرانى مجرما ولا اراه اخيرا

كم ذا اراه متعمدا ولا يرانى لائدا .

شعره في التصوف العملى : -

وقد نظم « ابن عربى » في جميع فنون التصوف ، ومن بين ذلك ما نظمه في الدعوة الى الاخلاق والزهد وايقار الآخرة على الاولى والتشويق الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن امثلة ذلك قوله يرغب في فعل الخير : -

لا تتدمن على خير تجود به

وان الماظك من تعطيه واقترا

فاه يرزق من يعطيه تعمت

سواء انكرها كفرا او اعترقا

ويدعو الى الاخلاص في العمل والبعد عن الرياء قائلا : -

ان كنت لى اكسونك ما انت لى ما انا لك

فاصغ الى قولى تجد صحة ما قد قلت لك

وللتزم طريقيتني واجهد وخلص عملك

تنزل بما جئت به من كل خير امك

وكتب الى صاحب له ببلاد الروم اسمه « اسحاق بن محمد من اصحاب السلطان ممن تخدم الدولة وتظهر به السنة : -

اسحاق فاسمع لوعظ من اخي ثقة

ولا يغرك تقريب السلاطين

أَن الْمُلُوكَ لَدَّ اسْتَقْنُوا بِمُلْكِهِمْ

عَلَيْهَا وَعَمَّا بِيَدِهِمْ مِنَ الدِّينِ

فَاسْتَقْنِ يَا هَذَا الْمُلُوكَ وَعَنْ

سُؤَالٍ مَنْ هُوَ مُسْكِينٌ ابْنُ مُسْكِينٍ

فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ يَا عَيْتِي وَيَا وَلَدِي

شَرَّ الْمُلُوكِ وَاشْرَارَ الشَّيَاطِينِ

وَمَنْ شَعَرَهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى النَّأْمِلِ وَالنَّظَرَةِ الْحَاثِبَةِ قَوْلُهُ عَنْ

الْمَوْتِ : -

شَابَ فُودَايَ وَشَبَّ الْأَمَلُ

وَمَضَى الْعُمْرُ وَجَاءَ الْأَجَلُ

عَسْكَرَ الْمَوْتُ لَنَا مُنْتَظَرٌ

فَإِذَا سَمِعْنَا الْيَهُمَ رَحَلُوا

لَيْتَ شَعْرِي لَيْتَ شَعْرِي هَلْ دُرُوا

أَنْتَى بَعْدَهُمْ مُنْتَظِلٌ ؟

فِي فَنُونٍ اللَّهُوَ أَفْنَى طَرِيَا

غَافِلًا عَمَّا لَهُ انْتَقِلُ

وله في معنى المحاسبة وإضافة الأعمال إلى الله تعالى ،

إذا لا فاعل إلا هو ورد في محاضرة الأبرار :

تَحَاسِبُهُمْ بِمَا فَعَلُوا وَمَا فَعَلُوا الَّذِي فَعَلُوا

وَتَطْلِبُهُمْ بِمَا عَمَلُوا وَأَنْتَ خَلَقْتَ مَا عَمَلُوا

فَهَلْ تَجْزِيهِمْ حِجْجٌ ؟ وَهَلْ يَزْكُو لَهُمْ عَمَلٌ ؟

لَنْ أَخْذُوا بِمَا عَمَلُوا فَاعْظِمْ مِنْهُ مَا جَهِلُوا ٠٠

وهو ينظر إلى قوله تعالى « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » وهو يمدح المصطفى ولكنه لا يجري على قاعدة المدح التقليدي ، بل يتجه اتجاهها ضوئياً ينظر فيه إلى أثر الرسول في نفسه ، وإلى رحمته التي شملته لأنه من المؤمنين وقد جعل الله الرسول بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ويقول في ذلك : -

مدحت المصطفى فمدحت نفسي

وَلِي قَسَمٍ وَمَا جَاوَزَتْ قَسَمِي

فَاعْمَلْ إِلَى تَرَدُّدٍ عَلَى مَنْهُ

وَلَوْ أَرَمِي فَعَيْتِي مَنْهُ أَرَمِي

وَقَدْ عَصِمَ إِلَهُ بِهِ وَجُودِي

فَإِنْ أَرَمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ بِصَمِي

وَهَذِي رَحْمَةٌ مِنْهُ تَوَالَتْ

لَدَى يَهَا يَعُودُ عَلَى سَهْمِي

وَقَلْبِي لَمْ يَزَلْ ظَنًّا جَمِيلًا

فَإِنْ الظَّنُّ مِنْهُ عَيْنٌ عَلَمِي

وهو ينظر إلى النبي المصطفى نظرة عظيمة تزكياً وراثته له ، ودليلاً في هذه الوراثه اتباعه شريعته التي جاء بها ، ويقارن بينه وبين نبي الله موسى عليهما السلام ، ويبين فضيلة محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن محمداً أسرى وخرج به أما موسى فقد كُلم فقط .

ورثت الهاشمي أخا قریش

بأوضح ما يكون من الدليل

أبايعه على الإسلام كشفا

وايمانا بالحق بالرعيل

أقوم به وعنه البه حتى

أبينه لأبناء المسيل

سرى في النور حتى كان أدنى

من القوسين في ظل ظليل

وشرف بالكلام أخوه موسى

على كذب وذلك بالمسيل

وأين العرش من واد بقاء

كما أين الكليم من الخليل ؟

ويتشوق ابن عربي إلى الكعبة وإلى الروضة الشريفة ،  
فيصوغ في ذلك دررا غوالي تجمع بين الشوق والتكريم لأصحاب  
الرسالة صلى الله عليه وسلم فيقول :

يا حبذا المسجد من مسجد

وحبذا الروضة من مشهد

وحبذا طيبة من بلدة

فيها ضريح المصطفى أحمد

صلى عليه الله من سيد

لولا لم نفلح ولم نهتد

قد قرن الله به ذكره

في كل يوم فاعتبر ترشد

عشر خفيات وعشر اذا

أعلن بالتأذين في المسجد

فهذه عشرون مقرونة

بأفضل الذكر إلى الموعد

وتشوق ابن عربي إلى الكعبة تغذية الأسرار الروحية  
التعبية ، فتطلب ذلك الشوق وتحبيه ، فلا ينطفئ حتى بمشاهدة  
الكعبة ومطافه حولها ، وهو يقول في ذلك :

أني إلى الكعبة القراء مشتاق

فيها لعاشقها في السر أعلاق

إذا تذكرت أسرارى ومشهدا

فيها تحركنى للبين أشواق

أش أعلم أني لست أذكرها

ألا وعندي لذاك الذكر أحراق

فألروح تائهة والنفس والهة

والقلب محترق والدمع مهراق \*

ويدعو ابن عربي إلى اكتساب الحلال في الرزق على طريقته في  
تفسير المعاني تفسيراً صوفياً دقيقاً ، يشير إلى وجوب ادراك  
الأسرار الإلهية في كل شيء فيقول :

في شهوة البطن سر ليس يعلمه

ألا الذي شاهد الرزاق رزاقا

لولا الغذاء ولولا سر حكمته

ما لاح فرع ولا عاينت أعراقا

فكل حالاً إذا كان المصل مو

جوداً بقلبك وهاباً وخلقا

وإبن عربي يعال دوران الزمان واختلاف الفصول تعليلا صوفيا ، يدركه العاقل الذي أدرك سر الحركة في الوجود كله ، وهو على رأى الأستاذ سيد الأمل سباني في نظريته تلك التي لم يحققها العلم الا حديثا ، وهو يقول في ذلك :

اتاك الشتاء عقيب الخريف  
وجاء الربيع يليه المصيف  
ودار الزمان بآبائه  
فمن دوره كان دور الرغيف  
سرى في الجسموم بأحكامه  
تغذى اللطيف به والكثيف  
عجبت لهم جهلوا ربهم  
ويسعى القوى له والضعيف  
فأصبح كالماء في قدره  
لسديهم وفي الماء سر لطيف

وإبن عربي في أدبه عميق الفكرة دقيق المعنى ، لا ينظر الى ظواهر الأشياء ولكنه يتعمق الى خفاياها ، فيستنبط منها أسرارها عجيبة وأحكاما غريبة ، وكم من أكل وشارب ، وكم من مشاهد لتقلب الأيام واختلاف الفصول ، ولكن قليلا من هؤلاء هم الذين فطنوا الى الحكمة من هذا وذاك .

إبن عربي والموشحات :

وإبن عربي كشاعر شارك في النهضة الأدبية التي كانت شائعة في الأندلس ، وسلك بظلمه مختلف الاتجاهات الشكلية التي استعملها الشعراء حينذاك ، ومن بين ذلك الموشحات التي ازداد خطرها

في الأندلس وأصبحت لها مكانتها ، وافتن الشعراء فيها أفتنانا كبيرا ، وأصبحت مجال سبق بينهم ، ومن نماذج موشحاته التي استشهد بها المقرئ قوله :

مطلع : سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين  
والعاشق الغيران من ذاك في حران ييئدى الأئين  
دور : يقول والوجد أضناء والبعد قد حـير  
لما دنا البعد لم أد من بعد من غـير  
وهيم العبد والواحد الفرد قد حـير  
في البوح والكتمان والمسر والاعلان في العـالين  
أما هو الديان يا عابد الأوثان أتت الضـنين  
دور : كل الهوى صعب على الذي يشكو ذل الحجاب  
يا من له قلب لو أنه ينكو عند الشباب  
قد قرب الرب لكنـه أفك فأتو المآب  
وتاد يا رحمن يا رب يا منان أتى حـزين

ولا يخفى معرفة ما تدور حولها هذه الموشحة من معان صوفية زوجية ، وفي الحقيقة لا يمكن الحكم على أدب « إبن عربي » بعيدا عن تصوفه ، لأن الأدب إنما هو ترجمان الفكر ، وإذا حكمنا غزارة الانتاج الى عمق أفكار « إبن عربي » وجدناه في الأدب فارسا لا يشق له غبار . هذا الى جانب تمكنه القوى في أن يعبر عن الحقائق العلمية بأسلوب أدبي منظوم أو منشور وكتبه العديدة غاصة بذلك اللون . والمقام يضيق عن عرض نماذج من ذلك ولعمري أن عرض الحقائق العلمية والصوفية بأسلوب مطواع دليل واضح على تمكنه من ناصية الأدب . فالمعروف أن الشعر يعتمد على الخيال والتصوير ومجاله في العاطفة أجلى وأوضح . فإذا ما استطاع الشاعر أن

يعرض بشعره بعض الحقائق دون تعمل وتعقيد كان ذلك دليلا على براعته الفائقة وشاعريته الملهمة ، ولقد عبر ابن عربي نفسه عن ذلك في الفصل الأول من الفتوحات عند تعليقه على قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » بقوله : فان الشعر محل الاجمال والرموز والالغاز والتورية ومعنى ذلك ان مجال الشعر اضيق من مجال النثر في التعبير لاعتماده غالبا على التلويح دون التصريح . والاعتماد على التلويح والاشارة ابقى وأبرع ولذلك كان الشعر موهبة من المواهب التي يختص بها قوم دون قوم . فما بالك اذا كان الشاعر غلبت عليه المعارف الالهامية التي تمز على العقول وتجل عن التعبير فعرضها بالنثر عسير وأذن فعرضها بالشعر اشد عسرا او اكثر تأبيا الا من كانت له حكمة قوية ومقدرة فائقة .

#### نثر ابن عربي :

وللشيخ الأكبر نثر في القمة الادبية ، وكتابه « الفتوحات المكية » خير نموذج لذلك ، وهو يعد دائرة معارف للعلوم الصوفية الى جانب ما يتميز به من سرد الحوادث في أسلوب سهل متناسق ، ولا يغفل جانب التشويق في بعض ما يعرضه من قصص ، ويحتوى الكتاب ايضا على نماذج مختلفة منها الوصايا والرسائل والحكم والمواعظ والمعارف الصوفية المختلفة ، وقد سبق عرض بعض نماذج من أسلوبه القصصي في هذا الكتاب ، ومن نماذج ادبه الوصفي ما سيأتي بعد في بيان صسفة المعارف . عند الحديث عن كتاب الفتوحات .

وفي نثره قد يلجأ الى استعمال المسجع والزخرف اللفظي كما نرى في هذه القطعة التي يكتب بها مقدمة « مواقع النجوم » : « لما شاء الله الحق - سبحانه وتعالى - أن يبرز هذا الكتاب الكريم الى الوجود ، ويتحف خلقه بما اختاره لهم من لطائفه وبركاته في خزائن جوده ، على يدي من يشاء من عبده ، حرك خاطري انشاء المطية -

من مرسية الى المرية » فامتطيت الرجال ، وأخذت في الترحال ، مراقلنا أظهر عصبة وأكرم فنية .. فلما وصلتها لأقضى أمورا املتتها ، تلقاني شهر رمضان بهلاله ، وصافحتني على مسامرتة بها الى اوان انفصاله ، فالتقيت بها عصا التسيار ، وأخذت في الذكر والاستغفار » (١) .

ونرى استعمال هذا الأسلوب الزخرفي في بعض الكتب الأخرى - وهو أسلوب هذا العصر - مثل شجرة الكون ، ومحاضرة الأبرار ، وشرح ترجمان الأشواق .

ومن نماذج نثره الذي يجمع بين الرسالة والوصية كتابه الى الملك كيكاوس صاحب بلاد الشمال ، ردا على رسالته التي أرسلها الى الشيخ الأكبر يستشيريه في بعض الأمور : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزيز إدام الله عدل سلطانه الى والده الداعي له محمد بن العربي ، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية ، والتصيحة السياسية الالهية ، على قدر ما يعطيه الوقت ، ويحتمله الكتاب الى أن يقدر الاجتماع ويرفع الحجاب ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين . وقد قلدهك الله هذا الأمر ، وأقامك نائباً في بلاده ومتحكما بما توفى اليه في عبادته ، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم ، وأوضح لك حجة بيضاء تمشي عليها وتدعوهم اليها ، على هذا الشرط ولاك ، وعلمه بايعناك فان عدلت فلك ولهم ، وان جرت فلهم وعليك ، فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

(١) مقدمة مواقع النجوم .

والمعامل في أسلوب الرسالة يجدها غير متكلفة ، ويظهر فيها اثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما تغلب عليها المعاني الدينية والصوفية التي هي موضوعات كتيبه كلها .

كما اننا نحكم منها على علو منزلته في نفوس الحكام ورغبتهم في استشارته والأخذ بنصيحته ونذكر منها حرصه على استئداء النصيح لمصلحة المسلمين ما أمكنته الفرصة لذلك محملا الحكام مسئولية تصديرهم نحو رغبتهم - وهذا منتهى الشجاعة الأدبية .

#### منزلة ابن عربي الأدبية :

لسنا في حاجة الى ادراك منزلة « ابن عربي » الأدبية التي وضعته في القمة بين ادباء المشرق والمغرب ، بل أصبح أحد الذين تمكنوا بمنزلتهم من التأثير في الجو الأدبي الشرقي وقد جعله صاحب كتاب « الشعر الأندلسي » بصفة خاصة عاملا هاما في ذلك التأثير ويقول في ذلك : أصبح أعلام الأندلس يخرجون « بزاد حافل من المعارف ينشرونها في أقطار ثائية ، ورجال مثل الحسين بن جبير ، ومحمد بن أحمد الصابوني وابن خروف سينقلون دور الشعر الأندلسي الى آفاق بعيدة . أما الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ومحيي الدين بن عربي بصفة خاصة ( ٥٦١ - ٦٣٨ هـ ) فسينقلان الى مدائن الشرق المشرق ما كان يفيض به قلوبهما من حرارة الشوق الالهي ، وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة ، وسيقضيان أيامهما في مكاشفة الدراويش ومقاسمتهم العيش » (١) .

ويقول الدكتور « محمد مصطفى حلمي » عنه : لقد خلف « ابن عربي » تراثا رائعا في الحب الالهي أشرقت بالأنوار الالهية صفحاته وعبقت بالأسرار القدسية نغماته (٢) .

(١) الشعر الأندلسي لاميلورسية غومس - ترجمة حسين مؤنس - ص ٣٤ .

(٢) ابن المارئي سلطان الماشقيين ص ٨٣ .

أما الدكتور زكي مبارك فيقرر عنه أنه « فتح الباب أمام الدارسين من الصوفية والفقهاء فكانت كتيبه مبعث نهضة أدبية قليلة الأمثال » أن ابن عربي لا تعرف أهميته في عالم الأدب والأخلاق الا اذ فكرنا جيدا فيما ترك من الثروة الأدبية والأخلاقية . يجب ان نتذكر أنه ترك الوف الصفحات ومئات القصائد وأنه راض اللغة على الطوعية للرموز وإشارات » (١) . وتلك براعة من غير شك .

هذا رأي ادباء العصر الحديث ونقادهم ، أما آراء من سبقوهم في أدب « ابن عربي » فنظهر في تقريرهم له ، ومن ذلك قول ابن الأثير عنه : « أنه أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب » وقول ابن النجار « له اشعار حسنة وكلام مليح ، اجتمعت به في دمشق في رحلتى اليها وكتبت له شيئا من شعره » وقول ابن مسدد : « انه كان جميل الجملة والتفصيل ، وله في الأدب الشئ الذي لا يلحق والتقدم الذي لا يسبق » وجاء في عنوان الدراية « هو قصيح اللسان بارع فهم الجنان ، قوى على الإيراد كلما طلب الزيادة يزاده وقال المقرئ : « ونظم الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له » .

كل ذلك يلقي الضوء على هذه الشخصية الأدبية الرائعة التي كان صاحبها يعتز بالكتاب والعلم والأدب ايما اعتزاز .

(١) الصرف الإسلامي في الأدب والأخلاق ج ١ ص ٢٠٣ .

## ابن عربي الصوفي

التصوف ليس علما مكتسباً :

لقب ابن عربي بالشيخ الأكبر كما لقب بسلطان العارفين .  
وهذان اللقبان لم يطلقا عليه اعتباطاً ، ولكنهما أطلقا عليه عن جدارة  
لخائفة بناء على ما وصل اليه من مكانة رفيعة في التصوف وعلومه  
وأنواقه .

والتصوف في حقيقة الأمر ليس علما مكتسباً يستطيع الإنسان  
أن يحصله بالقراءة . وإن ألقى في ذلك زهرة شبابه ونضارة حياته  
ولكن التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهديب النفسي  
والخلقي . وحين ذلك تشعر هذه المجاهدة أحوالا وأنواقا . قد يعبر  
عنها الصوفي أو لا يعبر .

ولن يهتدى العقل إطلاقاً وحده إلى المعرفة الصوفية وحقيقتها  
بدون سلوك ومجاهدة . وهذا لابد لهما من إرشاد شيخ عارف  
بصير خبير بمسالك الطريق ودرويه وشعابه .

والتربية في الطريق الصوفي أمر له أهميته . ويعمل عليها  
الصوفية تعويلاً كبيراً ، ولا يكاد يوجد فن من الفنون الطريق دون أن

يكون له موجه ومرشد يدلّه على طرق الجهاد ووسائله حتى ينتصر ويدرك ويبصر .

ولقد بلغ « الغزالي » أعلى المنازل العلمية ، وتبوأ عرش المعارف الفكرية ، وقرأ كثيرا من كتب التصوف ، ولكنه لم يصبح صوفيا الا منذ ان اخذ بيده شيخه ، يوسف النساج ، الى طريق الخير ، وفتح عيونه على مغاليق المعرفة ، فادرك ما لم يكن يدور في خلد ، وما لم يكن له في حسيان .

والمعرفة الصوفية أسرار اكنها الله واختص بها اصفياءه وجعل الطريق اليها محفوقا بالمخاطر والمعوقات ، ولن يتمكن من سلوكه الا من وطد عزمه على اجتيازه ، وجاهد جهادا شاقا ، حتى اذا ما انتصر في جهاده ارتفع الحجاب الكثيف الذي غطى على بصره وبصيرته ، فادرك من الحقائق في نفسه وفيما يحيط به ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والقرآن الكريم يزكي ذلك بقوله : « واتقوا الله ويعلمكم الله » والحديث الشريف يقول : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . وليس غريبا ان يكون للسلوك القويم اثر في تهذيب الوجدان وفي تصفية النفس وتنقيتها واجلاء مراتبها فتدرك من المعاني اعمقها وتلم من الأسرار ادقها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « اذا رايتم الرجل قد اوتي زهدا في الدنيا ومتطعفا فافترّبوا منه فانما يلقي الحكمة » . وقيل : « اذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكا يفرس الحكمة في قلبه » (١) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في هذا المعنى « التصوف ليس شعرة لثقافة كسبية ، ان الوسيلة اليه ليست هي الثقافة ، ولكن الوسيلة اليه انما هي العمل ، ان الطريق اليه انما هو السلوك والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هي الهام وهي كشف وهي

ملا أعلى انعكس على البصيرة المجلوة ، فتذوقه الشخص حالا وأحس به ذوقا وأدركه الهاما وكشفا » (٢) .

والدكتور عبد الحليم محمود يقرر هذا الكلام حين يتحدث عن عدم تأثر سيدي أبي الحسن الشاذلي ببصائر اثر في سلوكه او اتجاهه أو ذوقه ، بناء على أن التصوف لا يترك بالتلقين أو البحث أو الدراسة ولكن حقائقه تورث بالعمل والسلوك والمجاهدة ، وأن كان ذلك يحتاج الى مرشد وموجه يأخذ بطريق المريد حتى يمسك بزمام نفسه ، ثم يقول له : ها انت وربك ، وهذا كما فعل « ابن مشيس » مع « الشاذلي » رضى الله عنهما .

#### كيف تكونت شخصية « ابن عربي » الصوفية ؟

وهذا الكلام مفيد نصل منه الى ما نريد ، وهو الإجابة على هذا السؤال : كيف تكونت شخصية ابن عربي الصوفية ؟

تكونت شخصية ابن عربي بواسطة جهاد شاق مرير متواصل تعددت ألوانه وطرقه ولم تخرج على النمط الصوفي المعروف ، وهو القيام برياضات مختلفة تتنوع بين العزلة والسياسة والجموع والصمت والذكر والتفكير ومجالسة الصالحين واختيار الرفقاء وحمل النفس على ما تكره من أنواع المشقة في ضوء الالتزام بالشرع الحنيف .

وتم ذلك بتوجيه وإرشاد ظهر من سلسلة الشيوخ الذين التقى بهم ابن عربي وانتفع بنصيحهم . وقد سبق الإشارة اليهم . ولم يغفل في طريق ذلك الافادة من الكتب الصوفية التي وضعها بالهام من الله كبار الصوفية ، وفي مقدمة ذلك « الرسالة القشيرية » التي لا تزال مرجعا هاما في التصوف ومؤلفها الامام



العالم أبو القاسم بن هوزان القشيري المتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة . وقد صرح « ابن عربي » أنه قد ألفها منها في بدء سلوكه الطريق (١) .

وكتاب « ختم الأولياء للحكيم الترمذي » وقد كان هذا الكتاب مثار اهتمام الصوفية ومحبي الدين بن عربي بصفة أخص (٢) وألف حوله كتابا يجيب فيه عن الأسئلة التي طرحها هذا الحكيم في كتابه .

وكتاب « أحياء علوم الدين » للغزالي ، وأهميته لا تخفى على أحد ، وقد ألقى فيه « ابن عربي » دروسا عامة في مكة (٣) .

كما قرأ كتابا أخرى أشار إلى بعضها في مقدمة كتابه حاضرة الأبرار وذكر منها : مقامات الأولياء لأبي عبد الرحمن المسلمي ، وطبقات الصوفية للمسلمي أيضا ، وكتاب العزلة للخطابي وكتاب النور وكتاب درجات الثائبين ومقامات القاصدين للهروي ، وكتاب حلية الأولياء لأبي نعيم وغيرها .

هذه الكتب التي قرأها « ابن عربي » كان لها أثر من غير شك في توجيهه إلى جانب شيوخه الذين التقى بهم .

سلك « ابن عربي » الطريق الصوفي صغيرا ، فقد كان الحافظ الروحي يدفعه دفعا منذ صغره ، وقبل أن يموت والده كان قد اتجه إلى القيام ببعض الرياضات المختلفة وعن بينها العزلة ، مما أثار اهتمام « ابن رشد » كما سبق الإشارة إلى ذلك . ولكن « ابن عربي » كان قد أخذ بحظ وافر من العلوم الشرعية ، وبلغ في اكتسابها مبلغا كبيرا .

(١) ابن عربي ص ١٠٥ .

(٢) أبو الحسن السبكي ص ٥٢ .

(٣) ابن عربي ص ٣٦٢ .

وإن فقد كان تصوفه مبنيا على هدى يقين ، وعلى أساس متين من الشرع الحنيف ، و « ابن عربي » يقرر مرارا أن تصوفه خال تماما من أي اتجاه آخر غير الكتاب والسنة وأجماع المسلمين ، ولذلك نراه يكره التقليد ، وقد أشير إلى ذلك . وعلفه هذا جعله علما في علوم الظاهر قبل أن يصبح علما في علوم الباطن ، وهو الذي أثار له الطريق ليكون سلوكه عن معرفة وثبات وعزم ، وليكون ذلك عاصما له من الزلل أو الرجم بالغيب أو الخطأ .

وأتاحت له فرصة تعرفه على شيوخ الصوفية تعرضه بأيديهم وقيامه عمليا بأنواع المجاهدات التي أخذ بها نفسه حتى تمكن من الانتصار على نفسه ، ومن نقطة لانتصار على النفس كانت انطلاقته العليا إلى فضاء الروح الواسع غير المحدود بقيود المادة والحس . وقد سبق الإشارة إلى أن صحبة الشيوخ مفيدة في توجيه السلوك ، وليس الشيخ مؤثرا في المريد بقدر ما هو حووجه لسلوكه ، حتى يوقفه على مسالك الطريق ، ثم يهتف به : أن انطلق فقد أصبحت على يقين من خلوك .

وليس أدل على ذلك من أن كثيرا من التلاميذ فاقوا أساتذتهم ذوقا ومعرفة وإدراكا ووصلوا إلى مقامات قصرت عنها هم مرشديهم وموجهيهم ، وما ذلك بغريب ، فالفروع قد تفوق الأصول ، والأبناء قد يسبقون الآباء ، ولو وقفت همة مريد عند همة شيخه لما كان هناك مكان للطموح . ولما أصبح مجال للتقدم والسبق ، ولتوقفت الخطوات عند مكان ما لا يبرحه هذا أو ذاك .

و « ابن عربي » تلميذ نجيب من غير شك صاحب شيوخه فانتفع بإرشادهم واستفاد منهم سلوكا كان له أثره الطيب المصون فيما وصل إليه من الهام ومعرفة .

والطريق الصوفي مجاهدات ومعارف ، والمجاهدات طريق

المعارف ، والمعارف ثمار المجاهدات ، وهؤلاء الشيوخ وغيرهم الذين التقى بهم « ابن عربي » كان لهم أثرهم الذي أوضح الرؤية أمام عينيه ، وجعله يتقدم في طريقه الذي اختاره لنفسه بخطوات ثابتة ، وقطعت الطريق على كل شك خالج نفسه في صدر حياته الأولى ، ولم يكن لأحد هؤلاء الشيوخ أملاء خاص مذهبى فرضه على « ابن عربي » الذى ما لبث أن أصبحت له شخصيته المستقلة التى انطلقت تجوب الأفاق ، تلتقى بالرجال ، وتأتلف بالأخوان ، وتوطد المكانة التى ظفرت بها على مر الزمان .

### تمسكه بالشرع :

وكان « ابن عربي » طوال حياته دقيقاً في تمسكه بالشرع الحنيف ، ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة على أدائه ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الخروج على الشرع حراماً وزيغاً وخفافة ، كما كان يعتقد أن الطريق السليم لأدراك المعرفة الصافية هو طريق الشرع لا طريق العقل ، ويقول في ذلك :

لا تعتقد غير الذى تتلوه في

النص الذى تطلق الكتاب المحكم

وعليه فاعتمدوا وقولوا مثلهما

قد قاله عن نفسه واستلزموا

واعبدوا الله الشرع لا تعبدوا

العقل من هادوا اليه وسلموا

فالناس مختلفون في معبودهم

فمَنَزَه معبوده ومجسم

وهذه الأبيات تعطينا صورة حقيقية عن حياة الشيخ الأكبر ، هى اعتنازه القوى بالشرع ، واعتماده في أدراك العلم على الذوق

والكشف لا على العقل ، ولذلك لم يعمل إطلاقاً على الفلسفة ، ونفر منها نفوراً شديداً ، وقد مر بنا كيف كانت مقابلته لابن رشد فيلسوف زمانه وكيف رثى لحاله ، وكيف اتهم أحد الفلاسفة بالكفر حينما رآه يقول في أحد كتبه : « وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نصنع لها في العالم » .

ولكن نفوره من الفلسفة لم يمنع أن يكون مرناً غير متزمت في مناقشة حججهم . ولذلك نسمعه ينصح في مقدمة الفتوحات بعدم المبادرة إلى انكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين إذ ربما يكون في كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح ، ويقول في ذلك : « أياك أن تبادر إلى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلى مثلاً ، وتقول : هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فإن هذا قول من لا تحصل له ، إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلاً يكون باطلاً ، فعمى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق » ولا سيما أن كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها ، أو أحد من علماء الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة مشهورة بالحكم والتبرير من الشهوات ومكاييد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع ، فلا تبادر يا أخى إلى الرد في مثل ذلك وتمهل ، وأثبت قول ذلك الفيلسوف حتى تحد النظر ، فقد يكون ذلك حقاً موافقاً للشرعية لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته » (١) .

وهذه النصيحة العاقلة التى ترسم الطريق الصحيح لأدب البحث والمناقشة تحمل الأعرار الكامل للشرع والاصرار على عدم مخالفته ، وقبول كل ما يوافقه ، وفي الأبيات التالية يوضح طريق العلم الصحيح ، ويقرر أن العلم الموهوب لا يكون إلا بالحفاظ على الشريعة والتفانى في الطاعة والعبادة :

(١) البوائت والخواهر ص ٣٣ .

ما لقومى عن حديثى فى عصى  
اخذوا العلم عن الفكر وعن  
عدنا من جهة العلم به  
هكذا قالوا وما عندهم  
علوم القوم من انفسهم  
انه يعطى الذى يعلمه  
بينهم تبصرهم قد وثقوا

ما اظن القوم الا ندما  
كل روح ما له علم بما  
جل ان يفهم او ان يفهمها  
خير الذوق بعلم العلماء  
وعلمى من اله حكما  
لعبيد لم يزالوا رحما -  
فى المحاريب وصفوا القدا \*

فهو يفرق بين العلم الذى يكتسبه الانسان من العلماء وبين  
العلم الذى يهتدى اليه من الله ، والعلم الثانى يفوق الاول ، لانه جاء  
عن طريق الذوق للحقائق وادراك الأسرار ، أما الاول فليس  
الا صفات معلومة ومسطورا مركبة ، وهو يلوم قومه لانهم لا يبحثون  
حديثه فيدركون صدقه ويعرفون ان علومه موهوبة وعلومهم  
مكسوبة ، وفرق بعيد بين العلم الوهبى والعلم الكسبى ، والله  
سيحانه وتعالى لا يهب علمه الا لقوم خشعوا وتخلقوا بصفات  
المؤمنين الذين يقول فى حقهم : رجاء بينهم تراهم ركعا سجدا  
يبتغون فضلا من الله ورضوانا \*

وطريق العلم الحقيقى المأخوذ عن الكشف والذوق هو تعظيم  
الشريعة واجلالها واقامتها اقامة صحيحة وهو يقول فى ذلك :

تعظيم ربك فى تعظيم ما شيعرا  
فاصدع فان سعيد القوم من صدعا

والشريعة هى الطريق الصحيح لتحصيل المسعادة ، وهذه  
القصة التى يقدمها لنا فى الفتوحات يمكن ان تعطينا دليلا آخر على

(١) منابر الاسلام عدد شوال ٢٨٦ هـ وصفر ٢٨٧ هـ - الآية المذكورة فى  
آخر سورة الفتح \*

هدى تسكه بالشرع \* يقول : « رأيت فى واقعة وأنا ببغداد سنة  
ثمان وستمئة قد فتحت أبواب السماء ، ونزلت خزائن المكر الالهى  
مثل المطر العام ، وسمعت ملكا يقول : ماذا نزل اليه من المكر ؟  
فاستيقظت مرعوبا ، ونظرت فى السلامة من ذلك فلم أجدها الا فى  
العلم بالميزان المشروع ، فمن اراد الله بغفيرا وفقه وعصمه من غوائل  
المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده » (١) \*

وهو يلح على هذا المعنى كثيرا ، فقد نقل ابن العماد عنه قوله  
« العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته ، ويعرف ببصيرته  
ما لا يدركه أحد الا نادرا ، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من نفسه  
فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه ؟ وهذا مما قطع الظهور  
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » (٢) \*

وينقل الشعرانى عنه قوله فى الباب السادس والأربعين  
ومائتين من كتاب الفتوحات : « اياك ان ترمى ميزان الشرع من  
يدك فى العلم الرسمى بل يادر الى العمل بكل ما حكم به وان فهمت  
منه خلافا ما يفهمه الناس مما يحول بينك وبين امضاء ظاه  
الحكم به فلا تعول عليه ، فانه حكر الهى بصورة علم الهى من حيث  
لا تشعر ، ثم قال : وأعلم ان تقديم الكشف على النص ليس بشيء  
عندنا لكثرة اللبس على أهله ، والا فالكشف الصحيح لا يأتى قط  
الا موافقا لظاهر الشريعة ، فمن قدم كشفه على النص فقد خرج  
عن الانتظام فى ملك اهل الله ولحق بالآخرين افعالا » (٣) \*

ويعمل الشيخ الأكبر لكون علوم الوهب لا تأتى عن روية وفكر  
بقوله « لو كانت علوم الوهب نتيجة عن فكر أو نظر لاتحصرت فى

(١) (١) - ابن حجرى ص ٦٦ ، (٢) - شلوات اللهب ج ٥ ص ١٦٦ ،  
(٣) البواقيت والجواهر ص ٢١ \*

أقرب مدة ، ولكنها موارد تتوالى من الحق على خاطر العبد . -  
والحق تعالى وهاب على الدوام فياض على الاستمرار والحل قابل  
على الدوام ، (١) . والتوالى لا يكون الا بالمحافظة على الشريعة  
والاستمسك باقامتها .

فهذه العوامل التي اجتمعت من استعداد ، ابن عربي ، لسلوك  
الطريق الصوفي ، الى جانب اجتماعه على شيوخ اعانوه على هذا  
الطريق ، الى جانب ما قرأ من كتب حبيبته في هذا الطريق ، الى  
جانب التزامه جانب الشرع في طريقه وعدم حيدته عنه ، كل ذلك  
كون له شخصيته المستقلة العظيمة التي كان لها ذلك الانتاج  
الصوفي الضخم عملا وعلمًا .

#### ثمار التصوف :

وسرعان ما ظهرت ثمار التصوف في حياة « ابن عربي » بناء  
على ذلك النهج الذي انتهجه .

ظهرت في صورة عزوف كامل عن الدنيا ولذاتها ، فجز ذلك  
يتابع الحكمة في قلبه ، فانجالت عين بصيرته ، وارتفعت حجب  
الكثافة البشرية فأبصر وادرك ، واستشف كثيرا من المعاني عن  
طريق الكشف أو الإلهام .

وبدا ذلك الكشف عنده بواسطة الرؤى الصادقة التي ورد  
عنها الأثر الكريم : لم يبق من علامات النبوة الا المبشرات ، قيل :  
وما المبشرات ؟ فقال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح  
أو ترى له .

وكثيرا ما رأى « ابن عربي » رؤى تحققت في عالم اليقظة كما  
راها ، ومن ذلك ما يقصه عن رؤياه التي رأى فيها النبي صلى الله

(١) الكبريت الأحمر ص ٦ .

عليه وسلم اقتلع من أحد شوارع « اشبيلية » التي يكثر المرور  
فيها نخلة كانت تعترض طريق المارة ، فلما أصبح وجد تحقيق  
رؤياه .

وهناك اثر يقول : وحى المؤمن منامه . . . وذلك واقع وصديق  
وعتواتر فكثير من الناس تتحقق امامهم في الحياة اشياء كانوا قد  
راوا عنها اشارات أو راوها بعينها في المنام .

وقد صاحبت هذه الرؤى الصادقة الشيخ الأكبر في حياته  
وؤاد عليها ما كان يراه من تجليات ، هي غريبة في عالم الحس  
والعقل ، ولكنها ليست غريبة في عالم الحقيقة والكشف ، ومن  
ذلك مشاهدته بعض الأشخاص يقتحمون عليه خلوته والباب  
مغلق عليه ، فيحادثهم ويحدثونه ثم ينصرفون دون أن يفتح باب  
أو مضراع أو نافذة .

ثم يزيد على ذلك ما كان يصاحب جسده من اشراق في اثناء  
ذكره ، ينبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التي يوجد فيها .  
وقد حدثت له هذه الواقعة في أكثر من مكان ، ومنها « مصر » في  
اثناء زيارته لها .

ويزيد على ذلك أن يكون له لقاء خاص مع أرواح الأنبياء  
والأولياء والمؤمنين السابقين على انحاء مختلفة بفصلها ثلثيته  
« صدر الدين القونوي » بقوله : « كان شيخنا ابن عربي متمكنا  
من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء الماضيين على ثلاثة أنحاء :  
إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وانركه متجسدا في  
صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية المعاصرة التي كانت له في  
حياته الدنيا ، وإن شاء أحضره في نوعه ، وإن شاء أنسلخ عن  
هيكلة واجتمع به » (١) .

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦٦ .

وقد أشار شارح الصلوات الأدرسية الى محادثة الشيخ الأكبر للنبي ابريس عليه السلام والى محادثته للنبي موسى ، كما أشار هو الى ذلك في مواضع مختلفة من كتاب الفتوحات ، ومن ذلك قوله في الباب السابع والستين وثلاثمائة : « اجتمعت روحى بهارون عليه السلام في بعض الوقائع ، فقلت له : يا نبي الله ، كيف قلت : فلا تشسعت بى الأعداء ؟ ومن الأعداء حتى تشهدهم ؟ والواحد فينا يصل الى مقام لا يشهد فيه الا الله ؟ فقال لى السيد هارون عليه الصلاة والسلام : صحيح ما قلت في مشهدهم ، ولكن اذا لم يشهد أحكمك الا الله فهل زال العالم فى نفس الأمر كما هو فى مشهدهم ؟ أم العالم باق لم يزل وحجبتهم انتم عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم ؟ فقلت : العالم باق فى نفس الأمر لم يزل ، وانما حجبتنا نحن عن شهوده ، فقال : قد نقص علمكم بالله فى ذلك المشهد بقدر ما نقص من شهود العالم فانه كله آيات الله ، فأفادنى عليه الصلاة والسلام علما لم يكن عندي » (١) .

وقد تكون هذه المحادثة تمت على نحو من هذه الإنحاء المتقدمة .

وعلى نحو من ذلك كان لقاءه المتكرر للخضر عليه السلام وقد أشار « ابن عربى » الى هذا اللقاء عدة مرات .  
وظهرت ثمار التصوف فى غير ذلك ، ظهرت فى تلك الخوارق والكرامات التى كانت للشيخ الأكبر والنبي يضيئ المقام عن ذكرها ، كما ظهرت فى معارفه الفائقة التى غاضت بها أشعاره وأمتلت بها كتبه ومصنفاته .

### خرقة التصوف :

ولابد أن يكون الشيخ الأكبر قد أصبح من الوجهة الرسمية صوفيا بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معان ، والصوفى الرسمى

(١) البوايت والجواهر ص ٧٩ .

هو الذى يلبس خرقة التصوف ، « وابن عربى » كانت له وجهة نظر حول هذه الخرقة أولا ، فقد كان ينظر اليها على انها إشارة لعان وجدانية تهدف الى تهذيب السلوك وتقويم النفس والخلق ، وهو يشير الى ذلك بقوله : « وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن ، فان الخرقة عندما انما هى عبارة عن الصلحة والأدب والتخلق ، ولهذا لا يوجد لباسها متصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يوجد صلحة وأدبا ، وهو المعبر عنه بلباس التقوى » فى قوله تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » .

وقد ارتدى « ابن عربى » خرقة الصوفية أكثر من مرة ، فقد لبسها على يد شيخه على بن عبد الله بن جامع ، وكان الخضر قد لبسها بنفسه لهذا الشيخ ، ولبسها « ابن عربى » فى الموضوع الذى لبسها الخضر للشيخ .

كما لبسها قبل ذلك على يد شيخ آخر هو ( تقى الدين عبد الرحمن بن على بن ميمون التوروزى ) والخرقة أيضا كانت خرقة الخضر .

ويذكر فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات أنه ليس الخرقة من يد الخضر نفسه تجاه باب الكعبة ، وكان قبل ذلك لا يقول بلباسها (١) .

وقد أضاف « ابن عربى » منذ ذلك الوقت الى وجهة نظره الأولى حول الخرقة الإدراكات الذوقية التى تصاحب الرضاء الحسى ، ولتى يعبر عنها بقوله : « جرت عادة أصحاب الأحوال اذا رأوا واحدا من أصحابهم عنده نقص فى أمر ما ، وأرادوا أن يكملوا له حاله اتحد به هذا الشيخ ، فإذا اتحد به اخذ ذلك الثوب الذى عليه فى ذلك الحال ، ونزعة وأفرغه على الرجل الذى يريد

(١) التبريت الأحمر ص ١٤ .

تكلمة جاله ، ويضحه فيسرى فيه ذلك الحال ، فيكمل له ذلك الأمر  
فذلك هو اللباس العسوف عندنا والمتقوسل عن المحققين من  
شيوخنا (١) .

وهذا الكلام وإن بدا غريبا من جهة عدم إمكان حدوث اتحاد  
بين شيخ ومريد إلا أنه في عالم الحقيقة غير غريب ، فإن الصفاء  
الروحي الذي يكون بين شخصين تازجا وتصافيا وصلح أن  
يقول أحدهما للآخر : يا أنا ، يجعل الاتحاد الروحي غير مستحيل  
بينهما ، ويصدق ذلك قول « أبى الحسن الشاذلي » لتعليقه  
« المرسى » رضى الله عنهما : « ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا  
أنت » (٢) .

وقد اعتر « ابن عربي » بخرقة التصوف واللبسها بيده لكثير  
من مريديه ، وقد أشار الى ذلك في اشعاره ومؤلفاته .  
وخرقة التصوف لها آداب وشروط ، وهي ليست مجرد ثوب  
يلبس ، ولكنها إشارة الى منزلة من منازل القوم ، فيها يوطنون  
أنفسهم على احتمال الأذى وانكار الذات واذلال النفس ورغبة في  
اعزاز الروح واضعاف النوازع البشرية طلبا للانس الروحي .  
يقول الأستاذ عبد العزيز سعيد الأهل : « أما الصوفية فانهم  
يلبسون الخرقة الظاهرة بحجة ابعاد ابصار الناس عنهم استجلابا  
لأذاهم واحتقارهم ، وبقدر ما يصيبهم الأذى والاحتقار من الناس  
يدنون من الله ويلجئون اليه ويكون ذلك دفعا اليهم من الأغيار » (٣) .

وفي عبارة « ابن عربي » المتقدمة إشارة الى ذلك ، ولعل السر  
في اثر الخرقة يرجع الى ما تعمله روح الشيخ من توجيهه الى

روح اللباس فتأثر بها وتحاول أن تحلق معها في اجواء المعرفة  
والمشاهدات ، ولذلك لم يسمموا بازدياد الخرقة لكافة المريدن  
ولكنهم حين يشاهدون من أحدهم استعدادا خاصا يكون هو  
المركز .

ولايس الخرقة من حقه أن يغبط حينئذ لأنه وصل الى منزلة  
رفيعة وغاية كريمة ، يقول « ابن عربي » معبرا عن ارتدائه خرقة  
التصوف عن طريق الرمز لنفسه باسم « شرف » :

سالت شرف أن تلبسها خرقة القوم على شرط الوفا  
حين ثابت عندنا من كل ما كان منها قبل هذا سلفا  
فاجبتنا الى ما سالت باعتقاد ووداد وصفا  
وامرئاهما بأن تلبسها كل من كان بخير عرفا  
وهي لما لبستها أصبحت : حسبي الله تعالى وكفى .

فهو هنا يوضح أن نفسه حين لبثت الى التوبة وتطهرت من  
المعاصي كان من حقا أن تسمى « شرفا » وأن تطلب ارتداء الخرقة  
لتصبح من القوم ، وأنها تستحق ذلك بعد التوبة والاشهاد عليها  
امام الأتقياء واستمرارها على الطهارة والتوكل والرواح الى الله  
وحده بقلب منيب ومثل هذه النفس يحق لها أن تطلع على أسرار  
القلوب ، فتعرف منها الخير والذي لا خير فيه فتولى نحو الأول  
وتعزف عن الثاني ، وانقطاعها الى الله وحده والتسبيح بجمعه دون  
الأغيار يكفيها في درجة المعرفة وييسر لها طريق الوصول (١) .

(١) منير الإسلام - جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ .

(١) ابن عربي ص ٦٣ .  
(٢) طبقات الشرائع ج ٢ ص ١٣ .  
(٣) منير الإسلام - شعبان ٢٨٦ هـ .

## مجاهدة وأذواق ومعارف

التصوف مجاهدة ومعرفة • والمعرفة ثمرة من ثمار المجاهدة ،  
كما أن المجاهدة طريق لتحصيل المعرفة • وإى تعبير يدور حول  
المجاهدة والحث عليها هو صدق التصوف العملى ، كما أن التعبير  
عن الثمار التى نثمرها المجاهدة صدق للتصوف النظرى •

والمجاهدة فى الطريق الصوفى سلوك وأخلاق ، فالسلوك يكون  
بالتزام ألوان خاصة من العبادة والطاعة يضاف إليها ألوان تختلف  
سهولة وعتقا من الرياضات على حسب حالة السالك وما يرتثيه  
الموجه •

ولا تكاد تخلو طريقة من طرق الصوفية من ذلك الالتزام الذى  
تأخذ به مرديها فى حزم حتى يصلوا الى الغاية المطلوبة •

ولن يتقدم المرید خطوة واحدة ما لم يكن له من الخلق زاد  
وراحلة • والصوفى يحتاج الى ما يستحث خطاه ويقوى عزمه ويثبت  
ارادته ، فكان لابد من تعبير ادبى يصاحبه فى رحلته ويشد من أزره  
ويقى معوجه ويعينه على عثرات الطريق ، ويبين له آداب الطريق  
وما يجب أن يأخذ وما يدع •

وقد نظم أدياء الصوفية ونثروا في هذه المعاني الشيء الكثير ، وابن عربي لم يغفل هذه الناحية في شعره ونثره ، فكتب عنها مدققا ومقعدا وواضعا خطوات يسير عليها إبنائه وتلاميذه وغيرهم ممن **تجتنبهم الطريق ويستهوهم الهدى** .

كما كتب عنها مستحشا ودافعا الى مواصلة الجهاد في ذلك الطريق ، وبذلك يكون قد أدى للتصوف العمل حق من الأداء في اتجاهين :

**الاتجاه الأول :** الطريق الصوفى وما يحتاج اليه من آداب ومعاملات وما يلزم المريد فيها من ضرورات كالتخاذه الشيخ وتصحيح الإرادة وملاحظة الوقت والمداومة على الورد وغير ذلك مما يعد الحديث فيه من قواعد التصوف ، والكتابة في ذلك أدخل في باب العلم الصوفى .

**والاتجاه الثانى :** هو البحث على سلوك الطريق والدعوة الى التخلص بالأخلاق الفاضلة من زهد وتوبة وصديق وإيثار وغير ذلك مما يعد الحديث فيه صدى لمعاطفة تجعله أدخل في باب الأدب الصوفى ، وقد سبقنا الإشارة الى ذلك .

وقد ترك الشيخ الأكبر في ذلك ذخيرة حية وكتبه التى طبع منها وما لم يطبع تعد ثروة للتصوف لا تنفذ ذخائرها ، فقد عبر فيها عن كل شيء يتصل بالتصوف ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا وأدلى فيها ببيان .

تناول الشيخ الأكبر المريد من بدء سلوكه الى نهاية مرحلته في الطريق ، وأوضح له في كل خطوة يخطوها ما يجب عليه وما يستحب له . ويمكن تلخيص ذلك عن كتبه العديدة التى حفلت بكل هذه المعانى والتى جاء بعضها خاصا بذلك ، وجاء بعضها تتناثر في ثناياها تلك المعلومات والمعارف ، ونذكر بعض آرائه هنا للبيان :

أول ما ينبغي للمريد عمله التوبة ، ويجب له أن يبحث له عن شيخ فاضل متمكن توفرت فيه الشروط اللازمة لتربية المريدين . وقد أشار الى ذلك بقوله : شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاج اليه في التربية (١) ويقول : لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتبدير الألباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ (٢) . والشيخ ضرورى في رأى « ابن عربي » فهو يقول : من لم يكن له أستاذ فإن الشيطان أستاذ (٣) . وهو ينظر في ذلك الى ضرورة القدوة ، والى أن العقل وحده لا يكفى في اكتساب المعرفة الحقيقية ، وقد سبق الإشارة الى ذلك والى اعتقاده بأن العلم الحقيقى لا يتم الا عن طريق الذوق أو الكشف ، وهذا لا يتم الا بواسطة التهذيب النفسى والخلقى على يد بصير عارف متمكن .

و « ابن عربي » في ذلك يبنى رايه على تجربة خاصة اكتسبها من شيوخه الذين صحبهم وقد وافق على هذا الرأى من سبقه ومن لحقه من أئمة التصوف .

فالكلايادى صاحب التعرف على مذهب أهل التصوف ينشد لبعض الكبار :

من رآه بالعقل مسترشدا سرحه في حيرة يلهو  
وشاب بالتلبس أسراراه يقول من حيرته هل هو ؟ (٤)

والشيخ حسن رضوان صاحب مطهرة النفوس ينظم ما تنثروه هنا باختصار : « ليس في إمكان المريد الإمتداء الى طريق الحق من غير اقتداء ، فلا بد له من دليل عارف يكون له حصنا من الوسواس

(١) شارات الذهب لابن السمان ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) رسالة الأمر المحكم المربوط ص ٤ .

(٣) الأمر المحكم ص ٣ .

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦٢ .



وغيرها ، فإن أخذ الأدب من أصحابه ظهرت له الأسرار الباطنة في الفاظها فتنفتح به الأرواح وتنفس ، أما الذي يقول : أن الشخص تغنيه كتبه عن الشيخ فهو وأهم في قوله ، لأنه يمكنه أن يرى كشف الحجب ولا يمكنه صرف النفس عن هواها . (١) .

وشيوخ الصوفية جميعا يوجبون اتخاذ الشيخ - وإن كان الدكتور على صافى حمسين في كتابه الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري يرى أن بعض الشيوخ ومنهم الشاذلي لا يستوجبون على المريد اتخاذ شيخ له (٢) .

ولكن الواقع أن الشاذلية اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة وأوجبوا على المريد أن يكون له شيخ ، وقد جاء هذا على لسان غير واحد منهم ، ومن هؤلاء ابن عطاء الله السكندري الذي يقول في مفتاح الفلاح « وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ فاضل من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواء راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليمتثل ما أمر ولينته عما نهى عنه وزجر » ومنهم ابن عجيبة الحسني الذي يقول في غير موضع من كتابه : أيقاظ الهمم على شرح الحكم : لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدا .

ويحكى الدكتور أبو الوفا الفتازاني حياصة ابن عطاء الله السكندري - وهو لسان حال الشاذلية - قائلا : « ونخلص من كل ما سبق إلى أن ابن عطاء الله السكندري كان خاضعا في حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من أشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق إلى الله ، ولما يصلونونه من مجاهدة النفس ومحاربة يرى أن القلب دليل على عدم الاخلاص في عبادة الله » (٣) .

(١) روض القلوب المستطاب ص ٢٨٢ .

(٢) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٤٤ .

(٣) ابن عطاء الله ونسوفه ص ٤٤ .

وإن كان هناك من فسق بين رأى « ابن عربي » ورأى « الشاذلي » فهو أن ابن عربي يلح في « تحريم تغيير الشيخ بل وزيارة غيره بدعوى أن يجد عند هذا الآخر أفضل وأيسر ، إذ هو يرى أن القلب دليل على عدم الاخلاص في عبادة الله » (١) .

أما الشاذلي فقد كان متسامحا في هذه الناحية ، وكثيرا ما كان ينصح بعض المريدين بالتوجه إلى غيره من الشيوخ إذا كان في ذلك نهوض لحالهم (٢) .

ولا يتعارض رأى « ابن عربي » مع سلوكه الخاص فقد عرفنا أنه صاحب كثيرا من الشيوخ قدره بعض المترجمين لحياته بخمسة وخمسين شيخا ، لأنه كان متمكنا من حاله لا يخشى عليه من ذلك التغيير ، ولم يكن اصطحابه لهؤلاء الشيوخ الا طلبا في الاستزادة من « البركة » التي يحملونها ورغبة في التعرف إلى أحوالهم وتواضعاً لهم . أما المريد الذي يقدم له « ابن عربي » هذه النصيحة فهو الذي عرضه للوساوس والأوهام ، وهو يخشى عليه من تقلبه وتردده بين الشيوخ انقراط العزيمة وانحلال العقد وضياع الاخلاص .

وضرورة اتخاذ الشيخ في رأى « ابن عربي » وغيره من الصوفية لا تتناقى مع استعمال العقل الذي اعترف به الاسلام فاعتزل ضروري في النواحي التي أوصى الله سبحانه وتعالى باستعماله فيها وذلك مثل التفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار للاستدلال من ذلك على قدرة الله تعالى وعظمته وأحاطته ، وهذه درجة عظيمة من درجات العبادة ، أما استعمال العقل في الوصول إلى ذات الله فمتهى عنه .

(١) ابن عربي ص ١٢٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة « شاذلي » .

فإذا ما علم ضرورة اتخاذ الشيخ وجب على المريد أن يراعى مع هذا الشيخ آداباً معلومة حتى يمكنه الاستفادة الكاملة من مصاحبته ، ومن هذه الآداب في رأى « ابن عربى » أن يكون باراً باستاذة ولا يعترض عليه بقلبه أو بلسانه ، وأن يكون بين يديه « كالميت بين يدى الغاسل » وأن يكون مطيعاً لكل ما يصدر إليه من الشيخ من تعليمات وأن يقتفى خطواته وأن يحترمه في غيبته وحضوره وأن يتحجب إليه دائماً وأن يؤثره على نفسه<sup>(١)</sup> .

وليس في ذلك إلغاء لشخصية المريد ولكنه تثبيت لها ، لأن الهدف من وراء ذلك تنقية النفس من كافة شهواتها وفي مقدمتها الرغبة في التسلط والغرور ، ولن يقضى على ذلك إلا إذا قلعت أظفارها بالخضوع الكامل الذى يمحى الإرادة لمن يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة ، فهو بذلك يعيت نوازع النفس ليحيى معالم الروح ، ويقضى على داء الأثرة ليقمى معانى الايثار ، وليس ذلك غريباً ، فالتواضع رفعة والكبرياء ذل وقد امتدح الله قوماً يحبهم ويحبونه بأنهم أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين ، وإذا كان الله قد أمرنا بخفض جناح الذل من الرحمة لوالد الجسد فمن الأولى أن يكون ذلك الخفض لوالد الروح ورسالته أشرف ومهمته أقدس .

وآداب الصوفية مع شيوخهم مستمد من أدب الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يقول الله في حقه : « فلا ريب لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »<sup>(٢)</sup> ، ويقول في حقه : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم »<sup>(٣)</sup> وشيوخ الصوفية

(١) الأمر الحكم من ٥ - مواعج النجوم من ١٠٢ .

(٢) النساء ٦٥ .

(٣) الاحزاب ٦ .

يسيرون على قدم رسولهم الكريم ، ويؤدون واجبهم نحو رسالته السامية ، فلا بد أن يتحلى تلاميذهم بالآداب التى كان يتحلى به الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

## ٢ - الخلوة :

ويأمر الشيخ مريده بالخلوة إذا رأى في ذلك ما يصلحه ، وعلى المريد حينذاك ألا يبارحها إلا بإباحها إلا باذن شيخه في الحدود التى توضحها أصول الطريق ، وهى أن يكون خروجه لأداء جماعة أو قضاء حاجة أو سعى في ضرورات الرزق .

فإذا ما خرج فعليه أن يكون غاض البصر معلق القلب بالذكار له بلسانه مغلقاً سمعه عن كل ما يؤذيه في باطنه أو يقطع عليه تأمله وذكره وحضور قلبه وفهمته .

وفي الخلوة يمارس الؤانا من الذكر والتسابيح وتلاوة القرآن ، وصيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وقد يطالع بعض الكتب الصوفية والشرعية التى تعينه على وقته .

وتثمر الخلوة في رأى الشيخ الأكبر وغيره من الصوفية ثماراً عظيمة متى روعى فيه أدبها المطلوب وهو لا يخرج عما أشير إليه ، يضاف إليه الاقلال من الطعام وطول السهر وكثرة التأمل .

وهذه الثمار الباتعة للخلوة تظهر في العفة والطهارة وذلك بسبب البعد عن المفريات ، وفي الزهد لأنه أصبح حالاً للقلب بما انطبع فيه من كراهيته للدنيا وتعال على مبادئها ، وفى التجريد الذى يعد قمة أحوال الصوفية وذلك بما يصحب المريد من تقويض كامل وتوكل حقيقى ، ويصل به الى مقام البتول مريم التى كانت « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم ، ائنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

كما أن من ثمارها التواضع الذي يثبته عن شهود الافتقار الكامل إلى الله ومشاهدة عظمته وقدرته وهيبته ، وكلما اشتدت هيبة المريد لله ازداد انمحاقه والشعور بضغفه وذلك ، ومن كلام ذي النون المصري : من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تنوب وتصفو ، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته ، وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد<sup>(١)</sup> .

ومن ثمار الخلوة الصفاء كما هو ثمرة للتواضع أيضا ، ويفهم ذلك من قول ذي النون السابق : والصفاء هو المذمة الكبرى لما يأتي بعد ذلك من نتائج قيمة في الطريق الصواب ، والصفاء ينتج عن انجلاء مرآة القلب بذهاب ما تراكم عليها من ظلمة وكثافة وبانجلائها تصبح قابلة لمختلف الإدراكات الذوقية والكشفية .

وينتج عن الخلوة مدى استعداد المريد لبلوغ المقامات والأحوال المختلفة كالتركيز وما يترتب عليه من تسليم وتفويض والمحبة وما تستتبعه من شوق ووجد وأنس وقرب ، والمعرفة وما تحققه من غناء وبقاء .

### ٣ - استخدام الوقت :

ويعتني « ابن عربي » شأنه شأن غيره من الصوفية بتدبير الوقت وحسن استخدامه والانتنب لكلامه في كتبه وبخاصة الأنوار ومواقع النجوم يرى كيف يلج على ضرورة استفادة المريد من وقته الذي هو كالسيف أن لم يقطعه المريد بالعمل قطعه الوقت بالمقت .

والوقت لابد أن يكون مقسما بين فعل الخير والعبادة ، ويدخل

(١) غافر ١٥ .

في نطاق فعل الخير السعي في اكتساب الرزق الحلال وفي الإحسان والتصديق وإعانة الغير وعيادة المريض وتشجيع الجائز والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من أفعال الخير التي لها صلة وثيقة بترقية المجتمع ، ويدخل في نطاق العبادة كل ما يعود على النفس من تخلية وتصفية وتحلية ، فالتخلية بالتوبة ، والتصفية بالرياضة والتحلية بالذكر والتسبيح والتلاوة وما شابه ذلك .

على أن ذلك كله لا يمكن أن يؤتى ثماره المطلوبة ما لم يكن تحت إرشاد شيخ ، ويتصل بذلك في حتم استخدام الوقت محاسبة النفس ومراقبتها ، حتى يقطع الطريق على وساوسها وخطراتها ، والمحاسبة لها أثر كبير في تهذيب النفس وترقية الوجدان وتحسين السلوك ، وعليها يتوقف نجاح المريد في الوصول .

ويرى « ابن عربي » أن يقسم المريد ليله ونهاره تقسيما دقيقا ويختص كل ساعة بأعمال صالحة معينة ، وقد فصل ذلك في كتابه « كنه ما لا يد للمريد منه » ووضع تخطيطا إجماليا لتوزيع الساعات بما يشغل أوقات الفراغ من تلاوة ومحاسبة وشكر<sup>(١)</sup> .

وتدبير الوقت له أثر كبير في تنظيم الحياة لدى الصوفية ، ولذلك نراهم لا يشكون من أوقات الفراغ كما يشكو غيرهم ، ولكننا نراهم كثيرا ما يشكون من ضيق الوقت الذي لا يسعفهم بإداء حقوق الله الواجبة الأداء وشاعرهم يقول في ذلك :

وَزَادِي قَلِيلٌ مَا أَرَاهُ مَبْلَغِي      الزَّادُ ابْنِي أَمْ لَطُولُ مَسَافَتِي

ويعتني المحاسبة اطمأنوا في حياتهم ، وفرغوا من قلق النفس الذي نغص حبيسة كثير من الأفراد ، لأنهم أقاموا من ضماماتهم سلطانا حيا ، يراقب تصرفاتهم وسلوكهم ، ولذلك ارتفعوا بنفوسهم

(١) ابن عربي ص ١٥٦ .

عن الأنانية وحب الذات ، كما بعدوا عن مصالح النفاق ومدارج  
الظهور .

#### ٤ - الأخوة :

اعتنى « ابن عربى » بالأخوة في الله وحياته الطويلة الحافلة  
قضاها في صحبة أخوان صادقين كان يعتز بأخوتهم ويتقنى  
بصداقتهم ويسعى في حاجاتهم ويؤثرهم على نفسه ، وكان يتحدث  
كثيرا عن الأخوة التي تربطه بغيره ممن اتفق مشربه واتحد هدفه  
معه . وهو يذكر شيوخه وأخوانه فيقول عنهم « وما من واحد  
الا وعاشرته معاشرة مودة وامتزاج ومحبة منهم فينا » .

و « ابن عربى » يكره التكلف بين الإخوان بل يحب أن يتعاملوا  
فيما بينهم بالانبساط وعدم التكلف ، وله كتاب أشار إليه في  
مجلس جماعة من أصدقائه الذين كانوا يحتشمونه اسمه : « الإرشاد  
في خرق الأدب المعتاد » وكان يهدف من الإشارة إليه أن ينسطوا  
معه في مجلسه ويكنفوا عن التكلف والسكون . وهذه الناحية  
السلوكية تلح على مدى عنايته بالأخاء في الطريق الصوفي ، ولذلك  
تجدد ينس عليه كثيرا في رسائله ومصنفاته ، ويرى أن الأخوة  
تعين على السفر وتبدد الوهن في العزم وتقوى الهمة وتبعد الملل .

ويرى « ابن عربى » أن المرید ينبغي أن يكون إثارة غير قاصر  
على أخوانه ، بل يجب أن يشمل أفراد المسلمين ، لهذا من صفات  
الصدقين فعلية أن يبدل ما له بسخاء وأن يخدم الفقير وأن يعين  
المحتاج وأن « يعين العمال على رفع حمله وأن يعنى بالمريض ، وأن  
يهدي الضال ، وينبغي عليه أن يفضل الفقير على الغنى دائما ،  
وفي ذلك لون من ألوان الشجاعة الأدبية ، ومظهر يدل على قوة  
الشخصية التي تتألى عن مواطن الرياء والمدانة » . وعلى الصوفي

أن يسير في الطرقات مزيلا ما يعترضها من عقبات تلقف دون سير  
الغير من الحجار وأشواك » (١) .

هذه السعة الخلقية التي يراها « ابن عربى » لازمة للمرید  
وضرورة من ضرورات سلوكه في مجتمعه غير مفرق بين أفراد هذا  
المجتمع ، هي التي تحتم على المرید أن يكون سلوكه من باب أولى  
مع أخوانه غاية في الإيثار والتعاون والصفح والمودة والرماعة .

#### ٥ - ما يعين على بلوغ الغاية :

ولم يترك « ابن عربى » القنوية على الأسباب التي من شأنها  
تبلغ المرید الى أعلى درجات الرقى والكمال وهي كثيرة سبقت  
الإشارة الى بعضها ومن بين هذه الأسباب :

١ - **المحاسبة :** وهي تعد ركنا أساسيا في الطريق الصوفي ،  
وعماها الشرعى قوله عليه الصلاة والسلام : حاسبوا  
انفسكم قبل أن تحاسبوا .

وأثرها النفسى قوى لأنها تترك المرء يصلح نفسه أولا  
ياول ، وقد اعتنى الصوفية قديما وحديثا بهذا الأساس ، « وابن  
عربى » له في ذلك تجربة عملية فقد صاحب بعض الشيوخ  
الذين كانوا يحاسبون انفسهم على ما يقولون ويفعلون ، فزاد  
هو عليهم محاسبة نفسه على خاطره ، وتلك مرتبة عليا  
وجديرة بأن تبلغ بصاحبها الى الكمال الخلقى والروحى .

٢ - **الدعاء :** ويعتنى « ابن عربى » بالدعاء على أنه أحد الأسباب  
التي يبلغ بها المرید غاية الطريق ، والدعاء يتنوع بين صلاة  
وذكر وتأمل وتلاوة .

(١) ابن عربى ص ١٥٢ .

(١) الصلاة ، وهي في اللغة الدعاء ، وتجمع بين الابتهاج والتسبيح والمناجاة والتلاوة والصلاة على النبي في أدائها ، وهي إذ أدت على شريطتها المطلوبة حققت معنى الخشوع والخضوع والانقياد الكامل وحصول الأنس واستحضار الهيبة وأصبحت المسئلة الحقيقية بين العبد وربّه ، وتنوع الصلاة بين الغرض والنقل ، وهي كلما ازداد المرید إقامة لها ازداد اقبالاً على الله وقرباً منه ومحبة له .

(ب) الذكر ، وله أثر نفسي رائع ، فيذكر الله تلمعن القلوب ، وله أثر روحي يظهر من قوله تعالى : اذكروني انكركم ، ومن الأثر النفسي : إذا ذكرني عبدي في حلا ذكرته في حلا خير من ملته .

والذكر يورث الصفاء ويعمر القلب لأنه يقوم بمهمة التصفية والتخلية اللتين تعقبان التخلية ، والتخلية ( أي تخلية القلب من آثاره المذمومة ) تكون بالاستغفار والتوبة والندم ، فإذا ما طهر القلب وجب شغله وتعميره ، ويتم ذلك بواسطة الرياضة والذكر ، والذكر يورث انواراً تتمكن في القلب وتكشف أمامه الحجب .

(ج) التأمل ، وهو ضروري للمريد لأنه عبادة الصديقين ، والتأمل في رأي ابن عربي ، لا يكون في ذات الله ، استناداً إلى الأثر الوارد : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله ، والأثر الوارد : البحث عن الذات اشركك والعجز عن الإدراك ادراك . ويورد ابن عربي في ذلك شعراً :

قل لامرئ وأم ادراكاً لخالقه

العجز عن ادراك الإدراك ادراك  
من دان بالمعيرة الغراء فهو قتي  
لغاية العلم بالرحمن ادراك  
وأي شخص إلا تحققه  
فإن غايته جحد واشراك

فالعجز عن ادراك التحقيق شمس ضحي

جرت بها فوق جو النسيك افلاك

فالتأمل في رأي ابن عربي ، يجب أن يكون للعبادة والاعتبار والادراك قدرة الله وسعة حيطته وعلمه وأنه فعال لما يريد ، وذلك مطلوب شرعاً لقوله تعالى : ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب - الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه ففنا عذاب النار » (١) .

أما التفكير في ذات الله فممنهى عنه في رأي ابن عربي ، بمقتضى النهي عن قوله تعالى : ويحذركم الله نفسه » (٢) أي لا تتفكروا فيها .

وهذه حقيقة اتفق الصوفية وغيرهم عليها ، فالمحارث المحاسبية يقول : اكمل العاقلين من أقر بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته . وهذه حقيقة لا مرأ فيها وهي العجز عن ادراك ذات الخالق ، ومن حاول أن يدرك فعجزه دون الغاية وأقرب بعجزه فهو غاية الإدراك ، والعجز كله لكل المخلوقات حتى الملائكة التي تحف بالعرش ، وهي الرقائق النورية ، وقد التقى في ذلك صوفية المسلمين وفلاسفتهم » (٣) .

وفي الحقيقة ان الاعتراف بالجهل في هذه الناحية هو عين المعرفة ، لأنه دليل تام على عظمة الله وإحاطته وقدرته الخارقة التي لا يحيط بها علم ولا يدركها عقل . نقل صاحب الشذرات عن ابن عربي قوله : « أجمعت الطائفة على أن العلم بالله عين الجهل به تعالى » (٤) .

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) آل عمران ٢٨ .

(٣) مبدع الميزان الأول - منبر الإسلام وجب ٢٨٦ هـ .

(٤) الشذرات ج ٥ ص ١٩٦ .

وقد عبر عن هذا المعنى أحد صوفية العصر الحديث هو شيخنا السيد محمد علي منصور الأديبي قائلا فيما كان يردده أحيانا : -

عجزت - نعم - عن درك سر وجودي

وجعلت حتى صار جهلى شهوى

وأجلاله الصحابة الذين كانوا يبراس هدى لنا ورد عنهم ذلك الإقرار بالمعجز الذى هو عين الإدراك ، فقد سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ، قيل : وكيف عرفت ؟ قال : المعجز عن الإدراك ادراك .

( د ) التلاوة : وقد أدرك ابن عربى سرها منذ كان مصاحبا لوالده ورآه مواظبا على تلاوة القرآن الكريم وأدرك منه سر الأثر المشهور « يس لما قرئت له » فقد تلاها عند رأسه وهو مريض فى غيبوبة الحمى ، فرأى أجساما نورانية لطيفة تحيط به وتدفع عنه أى المرض ، ويروى عنه صاحب كتاب ابن عربى هذه القصة التى وردت فى الفتوحات « مرضت فغشى على فى مرضى بحيث انى كنت معدودا فى الموتى ، فرأيت قوما كريهين المنظر يريدون اذابتى ، ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عنى حتى قهرهم ، فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا سورة يس ادفع عنك ، فالتفت من غشيتى تلك ، وإذا بأبى رحمة الله عند رأسى يبكى وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها فأخبرته بما شهدت » .

وأدرك سر سورة الفاتحة وهى أم الكتاب من فاعلة بشت ابن المثنى القرطبي فقد كانت تتلوها فيتميم أمامها كل مطلوب ، ويروى « ابن عربى » عنها قولها : انى والله لتعجبه ، لقد أعطاني حبیبى فاتحة الكتاب تخدمنى فوالله ما شغلتنى عنه .

ويعلمنا « ابن عربى » كيف كانت تقرأ هذه المرأة اللاتعة

فيقول : - « أنشأت تقرأ فاتحة الكتاب وقراءتها معها ، فعلمت مقامها عند قراءة الفاتحة ، وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية » .

ومن الشيوخ الذين صاحبهم ابن عربى يواظبون على تلاوة القرآن « محمد بن قسوم الأشبيلي » الذى يقول عنه : « انه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة فى حضرة التوحيد وتارة فى الجنة وتارة فى الاعتبار وتارة فى الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد اطلع على علوم كثيرة فى تلاوته من الله تعالى ، ثم تكن عنده فهمه الله تعالى إياها من القرآن » .

وتلاوة القرآن لها حقاً ذلك السر العجيب ، وصاحبها من الذين لهم تجارة رابحة « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (١) .

وأداب التلاوة عند « ابن عربى » يوضحها بقوله : - « اذا وفقك الله وتريد أن يسمع الحق جل اسمه منك تلاوتك ويرسمك فى ديوان القالين ، فأعلم منازل التلاوة ومواظبها ، وذلك أن تعلم أن على اللسان تلاوة وعلى الجسم بجميع أعضائه تلاوة وعلى النفس تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة . فتلاوة اللسان ترتيل الكتاب على الحد الذى رتب الحرف له ، وتلاوة الجسم المعاملات على تفاصيلها فى الأعضاء وتلاوة النفس التخلق بالأسماء والصفات . وتلاوة القلب الإخلاص والفكر والتدبر وتلاوة الروح التوحيد » (٢) .

## ٦ - المقامات والأحوال :

الحال يطلق لغة على الوقت الذى أنت فيه وما عليه الشخص من خير أو شر ويطلق اصطلاحاً لدى الصوفية على المعنى الذى يرد

(١) سورة طاهر ٢٩ .

(٢) مواضع النجوم ص ٨٢ .

على القلب بلا تصنع ولا اكتساب . والمقام يطلق اصطلاحاً على « ما يتحقق به العبد من الآداب مما يتوصل اليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف » (١) .

والمقامات هي مراحل الطريق إلى الله وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب قدرته وعزمته وقوة صبره في الجهاد .

وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

ويختلف الصوفية في تحديد المقامات والأحوال على حسب أدواقهم ومشاربهم . فالغزالي رضى الله عنه يرى أن المقامات هي التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة (٢) .

وإبن عطاء الله السكندري يرى أنها هي التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة (٣) .

والطوسي - رضى الله عنه - يرى أنها التوبة والورع والزهد والفقر والتوكل والرضا (٤) .

أما إبن عربي فيذكر « أسين بلاثيوس » في كتابه أن أهم المقامات التي يذكرها هي « الفتوحات » هي التوكل والشكر والصبر والرضا والعبودية والاستقامة والإخلاص والصنق والحياء والحرية والغيرة والولاية والرسالة والنبوة والمحبة ، وفي كتابه « تحفة السيرة » و « مواقع النجوم » يذكر بعض المقامات الرئيسية مثل : الاستواء والتسليم والأنس والخوف والرجاء واتحاد الإرادة مع إرادة الله (٥) .

(١) الرسالة التفسيرية .

(٢) الأحياء الجزء الرابع .

(٣) التلويح في الشعر العربي .

(٤) اللع للطوسي ص ٦٥ .

(٥) إبن عربي حياته وطقبه ص ١٩١ .

ومن هذا ندرك أن إبن عربي بينه وبين غيره من الصوفية موافقة على بعض المقامات كما أنه انفرد عن غيره بذكر بعض المقامات كما انفرد بغيره كذلك .

واختلافهم راجع إلى تعدد الأنواع وهي قواعد غير ثابتة ولكنها اجتهدية تدرك من واقع ما يكشف لهم من علوم ومعاني ، فما يكشف لهذا قد لا يكشف لذاك وما يدركه رجل قد لا يدركه رجل آخر .

#### ٧ - أسرار العبادات :

وإبن عربي في دعوته إلى التمسك بأسباب النجاة ووسائل الكمال وفي مقدمة ذلك المواظبة على العبادات المختلفة لا يغفل عن أسرار هذه العبادات وما تهدف إليه من غايات وتربية للروح وإيقاظ للعناصر .

وهو في ذلك ينبه على أهمية الشرع وضرورة اتباعه وعدم الغفلة عنه لما يحتوي عليه من دقائق يغفل عنها ويقط ويغفل عنها الكسول .

والشرع في رأي « إبن عربي » ليس قسراً والحقيقة لها كما يرى البعض ، ولكن الشرع في رأيه شجرة فارعة ثمارها الحقيقة والمعرفة ، وكلما أعمق المرید في ممارسة الشرع ظهرت له حقائق وتكشفت أمامه أسرار لا يمكن أن يدركها من غير طريقها الأساسي وهو إقامة الشريعة على أصولها .

ولذلك نسعه ينبه مراراً على أن العلم الحقيقي لا يمكن إدراكه بغير الشرع وتطبيق محكم الكتاب والسنة - وقد مر بنا بعض النصوص الواردة في ذلك - وتضيف إليها قوله : - « لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكماً واحداً من شرائع الأنبياء

فمن ادعى المعرفة واستشكل حكما واحدا في الشريعة المحمدية  
او غيرها فهو كاذب» (١) .

ويقول الشعراني تعليقا على ما فهمه من قول « ابن عربي » في  
كتابه الفتوحات حول هذا المعنى « يجب على الولي متابعة العمل  
بالشريعة الملهمة حتى يفتح الله تعالى له في قلبه عين الفهم عنه فيلهمه  
معاني القرآن ويكون من المحدثين » (٢) .

ومما يدل على تعمقه الى باطن الأشياء قوله في الباب الخامس  
والعشرين من الفتوحات : « ان معنى « عبادة » في قوله تعالى  
« ان في ذلك لعلبة لاولى الابصار » من العبور لا من الاعتبار . ومعنى  
ذلك لا تقفوا على ظاهر الامر بل اعبروا من مظاهر تلك الصورة  
الى باطنها » (٣) .

ولكى ندرك مدى عناية ابن عربي بالتبنيي على اسرار العبادات  
نستمع اليه وهو ينصح المريد وهو يتأهب للصلاة بقوله : « فاذا  
توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ اسبغ وضوءه ، وسم الله  
في يده كل حركة ، واغسل يديك بترك الدنيا منهما ، ومعضض بالذكر  
والقلاوة ، واستنشق بشم الروائح الالهية ، واستبر بالخشوع وترك  
الكبر ، واغسل وجهك بالحياء ، وذراعيك بالتوكل ، وامسح رأسك  
بالمذلة والافتقار والاعتراف . وامسح اذنك باستماع القول واتباع  
احسنه . واغسل قديمك لانياء كتيب المشاهدة ، ثم اثن على الله بما  
هو اهل له ، وحمل على رسوله الذي اوضح لك سنن الهدى صلى الله  
عليه وسلم ، وقف في مصلاك بين يدي ربك من غير تحديد ولا تشبيه .

- (١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦٦ .  
(٢) الكبريت الأحمر ص ٢٢ .  
(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك وتحقق ان ما في الوجود  
أحد الا هو وانت فتخلص ضرورة ، وكبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك  
واذا تلوت فكن على حسب الآية المقلوة فان كان ثناء عليه فكن أنت  
المحدث وهو الذي يتلو كتابه عليك فيعلمك الثناء عليه فيما يشئ به  
على نفسه ، وكذلك في أية الامر والنهي وغير ذلك لتقف عند حدوده  
وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها في قلبك لادائها  
والحفاظة عليها ، والحظ ناصيتك بيده في ركوعك ورفعه وسجودك  
وجميع حركاتك فتسقط لك الدعوى في هذه الملاحظة حتى تسلم ،  
فاذا سلمت فابق على عقاك انه ما ثم أحد غيرك وريك سبحانه ،  
وسلم باللفظ على من امرك فان سلامك على نفسك « (١) فهو في هذا  
النص المنقول من التدبيرات الالهية يدرك السر من التعبد وينبئ على  
ملاحظته عند ممارسة العبادة .

يقول في الباب الثامن والمستين من الفتوحات : اشترطت النية  
في التيمم ولم تشترط في الوضوء لأن الماء سسر الحياة فهو يعطى  
الحياة بذاته سواء قصد أو لم يقصد بخلاف التراب لأنه كثيف  
لا يجرى على العضو ولا يسرى في وجه القصد فافتقر الى القصص  
الخاص بخلاف الماء» (٢) .

وهذا ادراك خاص لسر من اسرار الطهارة بالماء والتيمم .

وله في معنى الاستنشاق فهم رائع يوضحه في هذا الباب ،  
« فالاستنشاق بالماء في الأنف لأن الأنف محل العزة والكبرياء والماء  
طهارة ، فكان في ذلك اشارة الى نثر الكبرياء والتبري منه بالانقياد  
والخضوع لله » (٣) .

- (١) ابن عربي ص ١٦٦ .  
(٢) الكبريت الأحمر ص ٢٠ .  
(٣) محاضرة الارباب ج ١ ص ١٦٣ .



وفهم من الصلاة سر اشتقاقها من « المصلى » وهو الذى إلى  
السابق في الحلية ، والسابق هنا هو التوحيد ، والمصلى هو الصلاة ،  
ويشهد لذلك حديث : بنى الاسلام على خمس •  
« وابن عربى » يفهم من معنى استلام الحجر الأسود في أداء  
فريضة الحج معنى ساميا يقضى بالبايعة لله ، وهو ينظر الى الأثر  
الوارد : الحجر يمين الله في الأرض • وينشد :

من يقطع الأرسال صدقا فقد      اطاع من أرسلهم والسلام  
كمثل من بايع معبوده      وانما بايعه في الأمام  
وقد اتى أوضح من ذا      في الحجر الأسود بالاستلام  
فقل لمن يفهم ما قلته      بعد الذى سمعته : لا كلام

كما يدعو في أبيات أخرى الى تقبيل الحجر الأسود مشيرا الى  
مداومة الاتباع ورعى المودة وحفظ التمام ومنها على رتبة المعرفة •  
يمين المؤمن الركن اليماني      ابايعه لأحظى بالأماني  
يعين مالها حجب تعالت      عن الحجاب والمحجب المباني  
أمنت بلثمها من كل سوء      يصيرنى الى دار الهوان<sup>(١)</sup>

وهذه الأسرار التى توصل اليها الصوفية من العبادات هي  
المفهوم الزائد لهم ، وهي الخاصية الدقيقة التى أطلق عليهم من  
أجلها : علماء الحقيقة ، ولقد فهم الصوفية ذلك لأنهم تناولوا معنى  
العبادات بأرواحهم وأقاموها بأركانها وشعائرها الحقيقية المطلوبة  
وكان الاخلاص رائدهم في إقامتها ، وذلك هو المطلوب فعلا لقوله  
تعالى « فاعبد الله مخلصا له الدين » ولقوله « وما أمروا الا ليعبدوا  
الله مخلصين له الدين حنفاء » والاخلاص هو روح العبادة ، وهو سر  
من أسرار الله يضعه في قلب من يشاء من عباد • وبالاخلاص  
استنارت قلوبهم فأدركوا من المعانى ما لم يدركه غيرهم •

## تعبيرات في التصوف النظرى :

وفي التصوف النظرى الذى يعد ثمرة الجهاد المتواصل في  
الطريق الصوفى ، كما يعد صدقاً للانفعالات العنيفة التى تتكرر في  
نفس الصوفى وتمتلئ بها روحه ، ويعد تعبيرا عن العارف التى  
يتنقها أو يكشف بها ترك « ابن عربى » في ذلك ثروة ضخمة كان  
لها اثرها بين الصوفية والمفكرين • وسنعرض لموضوعين من ذلك •

### ١ - الحب :

ويقصد به هنا حب الله جل وعلا ، وهو عند « ابن عربى » حب  
يسمو على كل شيء ويرتفع بالإنسان الى درجة من القداسة تصل  
به الى أعلى المراتب ، لأنه لابد أن يكون ثمة لما مر به من جهاد  
متواصل ، وتحقق به من أرفع آيات الاخلاق والفضائل •

وحب الله تضاربت فيه الأقوال بين المفكرين والصوفية ، فالمفكرين  
ينكرونها على أساس أن حب الله لابد أن يتمثل في طاعته والافتداء  
بتيبه مصداقا لقوله تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم  
الله » ولا يجوز أن يقع الحب الا بين متماثلين ، ولا مماثلة بين العبد  
والرب<sup>(١)</sup> •

ولكن الصوفية يميزونه على أساس أن القرآن الكريم قد صرح  
به في قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » وقوله « فسوف يأتى  
الله يقوم يحبهم ويحبونه » وفي الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم  
حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » •

وليس هنا مظهر لهذا الحب أبغ من التذلل بذكره والتفانى في  
عبادته والتعظيم لاسمه والهيام بجماله ، والتعبير عن ذلك بما يشبه

(١) الادب السوفى في مصر ص ٩٥ •

(١) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٢ •

الغزل الحسى صوّنا لهذه العاطفة النبيلة المستكنة في القلب والشعور .

قال الدكتور زكى مبارك ، تكلم الصوفية جميعا في الحب لأن هذه الحال هي الفيصل بينهم وبين أهل الشريعة الذين يعبدون الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب ، ولا يستقيم حال المتصوف إلا إذا فرغ من دنياه وأخراه فلا يكن له مارب إلا لقاء الحبيب<sup>(١)</sup> .

وحب الله غاية نبيلة لدى الصوفي - ولدى ابن عربي بصفة خاصة - وهو طريق للمعرفة الكاملة عنده . فهو يرى أن المحبة أشواق واحتراق ، أما المعرفة تمكين وثبات ويعبر عن ذلك بقوله : الحب إذا سكت هلك ، والعارف أن لم يسكت هلك<sup>(٢)</sup> .

ولأن المحبة طريق المعرفة يفسر هذا البيت الوارد في ترجمان الأشواق :

عهدى بمنك عند يائك قاطفا

ثمر الخدود وورد روض أينع

بقوله : - « كم شهدت من محب مشتاق يروضك يقطف من ثمار معارف القويمية ، يعنى التخلق بها ، وقد اختلف أصحابنا في التخلق بصفة القويمية ومذهبى التخلق بها ، وقبما تحمله الوجبات من الحمرة المستفادة من ( ورد روض أينع ) إشارة الى مقام الحياء الذى نتج عن المراقبة والمجاهدة<sup>(٣)</sup> » .

(١) ابن التصوف والأدب ص ٨١ .

(٢) داية المدوية ص ١٢٥ .

(٣) ذخائر الأملق ص ١٠٤ يتصرف .

وقد تقلب « ابن عربي » فى مقام الحب ، واصطفى بشاره وله في ذلك آثار رائعة سبق الاشارة الى بعضها - ولا يلى المقام بالافاضة فيها - وخلص من مقام الحب الى مقام آخر قصرت عنه عزائم الكثيرين وهو مقام المعرفة الذى ظفر فيه عن جدارة بلقب « سلطان العارفين » ومن أهم هذه الآثار : ترجمان الأشواق ، الذى يقول في مقدمة شرحه :

ليت شعري هل دروا      أى قلب ملكوا ؟  
وفؤادى لو درى      أى شعب سلخوا  
اتراهم سئلوا      أم تراهم هلكوا ؟  
حار أرباب الهوى      فى الهوى وارتبكوا

وهذا تصوير لحيرة العاشق . والحب عند « ابن عربي » ليس كلاما يقال ، أو أشعارا تروى ، ولكنه أخلاق ومدارج ومعارج تسفك في الصعود اليها الدماء وتطل الأرواح .

ولا يكمل مقام الحب حتى يضل على عليه الحب ثوبا قشيبا من الخير والتسامح ونكران الذات ، وحتى يؤمن بنظرية الشمول الواسعة في الرحمة والمحبة ، فالتخلق جميعا مظهر قدرة المحبوب الأعلى ، وهم على اختلاف مذاهبهم لا يخرجون عن دائرة إرادته ومشيئته فلماذا يكن لهم بغضا أو يحمل لهم ضغنا ؟

وابن عربي صاحب القصيدة المشهورة التى يقول في آخرها :

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو حريص على الرمزية في حبه شأنه في ذلك شأن غيره من الصوفية حرصا على المعانى والأسرار وصونا للقداسة والروحانيات التى أدركها ، ومن ذلك قوله في ترجمان الأشواق :

سلام على سلمى ومن حل بالحمى

وحل ثلثي رقة ان يسلمنا

وماذا عليهما ان ترد تحية

علينا ، ولكن لا احتكام على الدمي

سروا وظلام الليل أرخى سدوله

فقلت لها : صبا غريبا متيما

فأبدت ثنـاياها وأومض بارق

ظلم ابر من شفق الحنادس متيما

وقالت : أما يكفيه اثنى بقلبه

يشاهدني من كل وقت ، اما وما ؟

والحب عذاب ، ويحلو التذلل في سبيله ، ويعبر ابن الفارض عن ذلك المعنى بقوله :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل

فما اختاره مضننى به وله عقل

وعش سألما فالحب راحته عنا

وأوله سقم وآخره قتل

أما ابن عربي فيقول :

إذا حلل ذكركم خاطري

فرشست خدودي مكان التراب

واقعدنى السذل في بابكم

تعود الأسارى لضرب الرقاب

ومن أجل هذا الحب الخطر الذى لا يهدأ قلب صاحبه ، ولا ينال في طريقه راحة ، لأنه حب محفوف بالمخاطر ، تعرض « ابن عربى » وغيره من الصوفية للسلاق بالسنة حداد ، الى جانب ما كانوا يكابدونه في نفوسهم من عذاب الوجد ومشقة الصمد ، وبعد الشقة ، وطول المسافة ، وهم اذلك أصبحوا بين تارين : نار الحب ونار العذل . اليس ذلك مما يبعث الرثاء لهم والعطف عليهم والرحمة بهم ؟

٢ - الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية :

أول من تحدث في هذا الأمر الحلاج المتوفى سنة ٤٠٩ هـ ، فهو يقول : : انوار النبوة من نوره برزت ، وانوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور انور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم وجوده سبق العدم وأسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم « (١) » .

وجاء ابن عربى بعد ذلك فجلى هذه الفكرة وأوضحها في مواضع متفرقة من كتبه ، وبين أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل ، وفتح الطريق لمن جاءوا بعده من الصوفية الى التعبير عنها تعبيرا يختلف من واحد الى آخر على قدر مفهومه وذوقه وإدراكه .

و « ابن عربى » ينظر الى النبى صلى الله عليه وسلم على انه بشر ، ولكنه لم يكن كغيره من البشر ، فهو انسان كامل منذ مولده ونشأته ، وهو يتقلب من كمال الى كمال ، ولذلك اعطاه الله جوامع الكلم واختصه بها ، كما اعطاه معانى الأسماء وحقايقها . أما آدم فقد علمه الأسماء فقط .

واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم انسانا كاملا فهو قد جمع الكمال من اقطاره ، في كل قول وقول وفي كل ما يأتى ويده ، وهو

(١) التصوف في الشعر العربي ص ٢٤٦ .

القدرة الكاملة والأسوة الحسنة وهو اكمل نبي وافضل مبعوث . وقد اختصه الله بمقام الفردية . ولذلك اطلق عليه ابن عربي في كتاب فصوص الحكم هذا المنطوق « فص حكمة فردية في كلمة محمدية » . ويعبر عن حقيقة محمد الكاملة الذي يطلق عليه ، الانسان الكامل ، في كتابه شجرة الكون بقوله : « ان الله كون الاكوان اقتدارا عليها لا افتقارا اليها ، وكمال حكمته في التكوين وذلك لظهور شرف الماء والطين ، فانه اوجد ما اوجد ولم يقل في شيء من ذلك : اني جاعل في الارض خليفة ، وكان وجود الانبياء ، فكانت حكمته في وجود الانبياء لظهور شرف النبي صلى الله عليه وسلم ، لانه حكمة الاجساد واستخراج كالف الكنزية : كنت كنزا مخفيا لا اعرف . فكان المقصود في الوجود معرفة موجودهم سبحانه ، وكان المخصوص باتم المعارف قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لان معارف الكل كانت تصديقا وایمانا ، ومعرفة صلى الله عليه وسلم مشاهدة وعيانا وبثور معرفته تعرفوا . وبفضله عليهم اعترفوا ، فاستخرجوه من لباب حبة « كن » كزرع اخرج شطاه فآزره بصحابته ، فاستغلظ بقرابته فاستسوى على سوقه بصحة ذوقه وقوة توفقه وشوقه » (١) .

و « ابن عربي » يؤكد ان النبي صلى الله عليه وسلم اكمل موجود في هذا النوع الانساني ، ولذلك بدء به الامر وختم . وكان نبيا وادم بين الماء والطين ، وليس ابل على ذلك من انه حين سنن صلى الله عليه وسلم ، حتى كنت نبيا يا رسول الله ؟ قال : وادم بين الروح والجسد ، كما روى عنه : كنت اول الانبياء في الخلق وآخرهم في البعث (٢) .

(١) شجرة الكون ص ٧ .

(٢) محمد الانسان الكامل - مقال الدكتور محمد مصطفى حاتم - نشر الإسلام .

اما كيف كان اولهم خلقا فقد اشار الى ذلك « ابن عربي » بقوله : « لما قبض الله ادم من قبضة تراب « كن » مسح على ظهره حتى يميز الخبيث من الطيب ، فاستخرج من ظهره من كان من اصحاب اليمين ومن كان من اصحاب الشمال ، ثم اعتصر من شجرة « كن » صفوة عنصرها ، ومخضها حتى بدت زبدتها ، ثم صفاها والقي عليها من تور هدايته ، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها في بحر الرحمة ، ثم خلق منها نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم زين بنور الملائكة حتى اضاء وعلا ، ثم جعل ذلك النور اصلا لكل نور ، فهو اولهم في المسمطور ، وآخرهم في الظهور » (١) .

ورسم « ابن عربي » الطريق لمن جاء بعده ليعبر عن هذه الحقيقة ومن هؤلاء « الجيل » الذي ألف كتابا اسماء « الانسان الكامل » في معرفة الاواخر والاولى - وفيه يقول : ثم انهم ( اي الانبياء ) متفاوتون في الكمال منهم الكامل والاكمل ولم يتعين منهم بما تعين به صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذي قطع له بانفراده فيه ، شهدت له بذلك اخلاقه واحواله واقفاله وبعض اقواله ، فهو الانسان الكامل ، والباقيون من الانبياء والاولياء الكمل صلوات الله عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالاكمل ، ومنتميون اليه انتساب الفاضل الى الافضل ، ولكن مطلق لفظ الانسان الكامل حيث وقع في مؤلفاتي انما اريد به محمدا صلى الله عليه وسلم تاديا لمقامه الاعلى ومحل الكمال الاسنى » (٢) .

ولم يترك « ابن عربي » فرصة للتعبير عن اجلاله لهذا النبي الكريم على ضوء هذه الحقيقة التي ادرکها الا وجلى فيها ببيان الصافي ومنطقة الوافي شعرا كان او نثرا ، ومن ذلك ما نقرؤه له

(١) شجرة الكون ص ٦ .

(٢) الانسان الكامل - الجلى ج ٢ ص ٤٤ .

مباهايا بوراثته لذلك الرسول الكامل ومباهايا له ومقارنا بيته وبين  
موسى عليه السلام ، حيث أن موسى شرف بالكلام فقط ، أما محمد  
فقد شرف بالأسراء والرؤية والشهادة +

ورث الهاشمي أخا قریش  
أبايعه على الإسلام كشفا  
اقبوم به وعنه اليه حتى  
سرى في النور حتى كان أدنى  
وشرف بالكلام أخوة موسى  
وإين العرش من واد بقاع

بأوضح ما يكون من الدليل  
وأيماننا بالحق بالرعييل  
أبينه لأبناء السبيل  
من القوسين في ظل ظليل  
على كتب وذلك بالمسبيل  
كما إين الكلم من الخليل ؟

## ابن عربي بين أنصاره وخصومه

عبر « ابن عربي » عن الأسرار التي لأحت له في أثناء طريقه  
وعن المعارف التي كوشف بها أو أدركها بذوقه ، ومن ذلك تعبيره  
عن الحب الإلهي وأفاضته فيه ، وحديثه عن الحقيقة الحمديية بالصورة  
التي أوضحها وبين رأيه فيها ، كما عبر عن مقابلاته مع الأنبياء  
والسابقين والأولياء والمؤمنين ، وعبر عن مشاهداته لمختلف  
الروحانيات التي لا تقع تحت الحس ولا يمكن أن يدركها العقل ،  
وعبر عن أسرار المقامات والأحوال وما يصاحبها من تأثيرات نفسية  
وروحية ، وتحدث عن الدقائق الخفية التي تنتاب الصوفي في نهاية  
طريقه فيرى أشياء تمار فيها الأفهام ويدق فيها الكلام الى غير  
ذلك +

و « ابن عربي » ترك ثروة سخيفة من غير شك في ذلك ، وهذه  
الثروة عرضت أمام مجاهر النقد القديم والحديث ، وأدلى كل من  
القدماء والمحدثين برأيه في قوله ، فمن معجب وتاقم ومن مدافع  
ومهاجم +

ولكن الذي يهمد لاین عربي هو حيدته في التعبير - على حد  
قول الدكتور زكي مبارك - عنه في ذلك : انه علم الناس كيف

يخوضون في أخطر الأحاديث ثم يسلمون<sup>(١)</sup> ، فابن عربي في تعبيره عن هذه الأسرار كان متمكنا من نفسه ، لم تأخذه الدهشة ، ولم يقلب عليه « الشطح » في كل أحواله ، وكان أمينا في تعبيره فلم يصور شيئا خارجا على حدود الشريعة وكل كلمة قالها أو كتبها استطاع الصوفية أن يجدوا لها متاولا شرعيا من غير تكلف يتسبونها إليه .

### وحدة الوجود :

ولكن برغم ذلك فقد وجد بعض الطاعنين له مناقض يتقذرون منها إلى الطعن عليه والنيل منه . ومن ذلك الفكرة التي أسندت إليه ، وهي فكرة « وحدة الوجود » فقد أشير إليه على أنه صاحب مذهب في الوجود وفي الوحدة ، وفي صدور الموجودات عن موجدها ، ويصح أن نوضح المقصود بوحدة الوجود لدى الصوفية . وحدة الوجود لدى الصوفية ناتجة عن طول تأملهم في آيات الله والآله التي أبدعها فبدا عليها أثر خلقه وإنشائه وإبداعه ، فنور الله وقدرته وجلاله وجماله يبدو على هذه الآيات كما يبدو تأثير المؤثر في الأثر ، وقد يقرب من هذا المعنى ما أراده ذو النون المصري حين هتف ينادي ربه : - « الهى ما أصغيت إلى صوت حيوان ولا إلى حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا تقعقة رعد إلا وجدت لها شاهدا بوجدانيك دالة على أنه ليس كمثلك شيء . » ومثل هذا قول الدكتور زكي مبارك على لون من التجوز :

ومن أنت يا ربى ؟ أجبتني فأننى رأيتك بين الحسن والزهر والماء وهذا لا يقصد منه حلول أو اتحاد أو اندماج بين الخالق والمخلوق . ولكن يقصد منه ظهور قدرة الله وأثاره وعظمته في العالم بأموره .

(١) التصوف الإسلامى وإثره في الأدب والأخلاق ج ١ ص ٣٠٢ .

وفي كل شيء له آية قدل على أنه الواحد وهذا المعنى يعبر عنه استاذنا السيد محمد علي منصوري الأقدمي - رضى الله عنه :

وأيضا وليت لم أر غيره محيطا ، ولم يدركه عبد هواه ومعنى يدركه أى يدرك هذه الحقيقة وهي شهود الاحاطة . وعبد الهوى محال أن يدرك مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة .

فوحدة الوجود في رأى الصوفية غيرها في رأى الغربيين والمستشرقين ، لأن الصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكنهم يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود الحق لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو<sup>(١)</sup> . أما غيرهم فيرون أن الروح والمادة شيء واحد .

وحقيقة هذه الحقيقة عند الصوفية قائمة على المعرفة الحقيقية لله ، فقد قال معشوروف الكوخى : « إذا انفتحت عين بصيرة العارف ناعت عين بصره فلا يرى إلا الله » وهذا ما يعبر عنه الشيخ حسن رضوان في كتابه روض القلوب المستطاب :

وكل ما سواه نجم أفل بل في شهود العارفين باطل ويعلق على ذلك بقوله : - « أن كل ما سوى الله تعالى من الأعيان الظاهرة والماهيات الممكنة علوية أو سفلية باطل في شهود العارفين من حيث ذاته ، فلا حقيقة له أزلا وأبدا ، وإنما الموجود حقيقة كذلك هو ذات الحق تعالى ، وليس لتلك الأعيان والماهيات الظاهرة وجود حقيقى ذاتى لها ، »

ويستشهد الشيخ حسن رضوان على بيان هذه الحقيقة واجلائها بقول الجيللى :

(١) اعلام التصوف الإسلامى لطف عبد الباقى سرور ج ١ ص ٨٥ .

وما الخلق في التمثال الا كتلجة  
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه  
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه  
تجمعت الاضداد في واحد البها

فمثل رضى الله عنه العالم بالثلج ، والحق تعالى - وله المثل  
الأعلى - بالماء ، وليس الا الماء في الحقيقة والثلجية طارئة عليه .

فليس الا الله والمظـاهـر لجملة الاسماء وهو الظاهر<sup>(١)</sup>

وهذه المعاني مستفادة من بعض الآثار ، كان الله ولا شيء معه  
وهو الآن ما عليه كان ، ويوضح هذا المعنى استشهاد الامام الرندي  
في شرحه لحكم ابن عطاء الله السكندري بقول القائل :

الله قل ، وثر الوجود وما حوى  
فالكل دون الله ان حققته  
واعلم بانك والعوالم كلها  
من لا وجود لذاته في ذاته  
فالعارفون فتوا بان لم يشهدوا  
وراوا سواه على الحقيقة هالكا

وذلك عند شرحه لهذه الحكمة العظمائية : « مما يدل على وجود  
قهره - سبحانه - ان حجبك عنه بما ليس به وجود معه »<sup>(٢)</sup> .

ويقصل ابن عجيبة هذا الأمر تفصيلا عجيبا حيث يقول :  
« قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ولم أره حديثا ،

وانما هو من قول بعض العارفين : قاهر السير من المريدين يشهدون  
الكون ثم يشهدون المكون عنده ويأثره ، فيمتحن الكون من نظرم  
اليه ، وهذا حال المستشرف ، واهل مقام الغناء يشهدون الحق  
قبل وجود الخلق ، بمعنى انهم لا يرون الخلق أصلا ، ان لا ثبوت له  
عندهم ، لانهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة فانون عن الحكمة غرقى  
في بحار الأنوار ، مطموس عليهم الآثار ، وفي هذا المقام قال بعضهم :  
ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ، واهل الحجاب من اهل الدليل  
والبرهان انما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده ،  
وانما يستدلون على وجوده بوجود الكون ، وهذا لأعامة المسلمين  
من اهل الهميم ، فقد أعوزهم وجود الأنوار وحجبت عنهم شعوس  
المعارف بسحب الآثار ، ثم يستشهد ابن عجيبة بقول القائل :

لقد ظهرت فلا تخفى على احد

الا على اكمله لا يبصر القمر

لكن بطئت بما اظهرت محتجبا

وكيف يعرف من بالعزة استترا<sup>(٣)</sup>؟

وقد اكثرت الصوفية في التعبير عن هذه الحقيقة حتى اوهم هذا  
الاكثار فكرة الخلط بين القديم والحديث ، ولكن حاشا للصوفية  
- وهم اعرف الناس بالله - ان يقصدوا ذلك ، وهم يستأنسون بقول  
على كرم الله وجهه « الحق تعالى ليس من شيء ولا في شيء ولا فوق  
شيء ولا تحت شيء ، ان لو كان من شيء لكان مخلوقا ولو كان فوق  
شيء لكان محمولا ، ولو كان في شيء لكان محصورا ، ولو كان تحت  
شيء لكان مقهورا » .

وكما ما يؤكد الصوفية هو هذا المعنى المستفاد من الاثر : كان

(١) ايقاظ الهمم ص ٥١ .

(١) روض القلوب المستطاب ص ٦ .

(٢) شرح الرندي على حكم ابن عطاء الله ج ١ ص ١٩ .

الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، فليس الكون في نظرهم كما يعتقد الغربيون شيئا واحدا لا فرق بين قديم وحديث على نحو ما فهم المستشرق « نيكلسون » في كتابه الصوفية والاسلام ، ودعواه بأن الصوفية انتهوا الى ان العالم جميعه وفيه الانسان واحد مع الله بالضرورة<sup>(١)</sup> .

وقد سبقنا الإشارة الى كثير من ماثورات الصوفية التي تؤكد فهمهم حول هذه الحقيقة بما لا يتناقض مع فكرة الله وديموميته وأحاطته وفرديته - ويؤكد الدكتور « عبد الوهاب عزام » ضرورة مراعاة الفرق بين فهم الصوفية وغيرهم لحقيقة وحدة الوجود بقوله : « ينبغي أن يفرق بين وحدة الوجود التي رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود في رأي العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شيء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود لله تعالى فليس هو العالم ولا العالم هو »<sup>(٢)</sup> .

وعلى هذا الفهم يمكن أن يفسر كلام « ابن عربي » الذي يفهم منه فكرة وحدة الوجود ، وهذا الكلام هو الذي أشار اليه الدكتور أبو العلا عفيفي في دائرة المعارف الإسلامية بقوله : ويتلخص مذهبه ( وحدة الوجود ) في عبارته القصيرة الواردة في الفتوحات ج ٢ ص ٦٠٤ وهي « سبحانه من خلق الأشياء وهو عينها » وفي البيتين الآتيين الواردين في الفصوص إشارة الى هذا المعنى :

يا خالق الأشياء في نفسه      أنت لما تخلقه جامع  
تخلق ما لا ينتهي كونه      فيك فانت الضيق الواسع

(١) التصوف عند المستشرقين ص ٢٦ -

(٢) اعلام التصوف الإسلامي ج ١ ص ٨٥ -

فابن عربي قريبا ورد على لسانه من عبارات توهم في ظاهرها فكرة الوحدة بين الخالق والمخلوق لا ينبغي أن تفهم الا على أساس فهم الصوفية من هذه الوحدة ، وهو الذي أشير اليه فيما سبق ، وتصدوا منه أنه لا موجود على الحقيقة الا الله تعالى ، وليس معنى ذلك أن الله هو العالم أو العالم هو الله .

سلامة عقيدة ابن عربي :

وليس في عقيدة ابن عربي تغيير لعقيدة التوحيد الاسلامي ، وليس من السهل الحكم على رجل كابن عربي بأنه يغير عقيدة التوحيد الاسلامي ، وهي لا اله الا الله ، وهو الذي كان يعظم الشريعة ايماء تعظيم ولكنه يقرر : - « أن الحق ثابت في الوهيته قبل اثبات المثبت ، ومن كان ثابتا لا يحتاج الى اثباتك ، اذا ما تم من تثبت الوهية من الخلق حتى ينفي ، وإنما تعبد المؤمن بذلك على سبيل التلاوة ليؤجره الله على ذلك » وهذا نوق عال في الفهم .

وأما قوله : « لا موجود الا الله » فمعناه : أنه لا موجود قائم بنفسه الا هو تعالى ، وما سواه قائم بغيره ، كما أشار اليه حديث : الا كل شيء ما خلا الله باطل ، ومن كانت حقيقته كذلك فهو الى العدم أقرب ، إذ هو وجود مسبق بعدم ، وفي حال وجوده متروك بين وجود وعدم ، لا تخلص لأحد الطرفين ، فإن صح أن الشيخ ابن عربي قال : لا موجود الا الله فأنما قال ذلك عندما ثلاث عند الكائنات حين شهوده الحق تعالى بقلبه ، كما قال أبو القاسم الجنيد : من شهد الحق لم يرد الخلق .

وأما قوله مما يفهم منه أنه جعل الحق والخلق شيئا واحدا مثل :

فيحمدني واحمده      ويعبدني واعبده

فإن معنى يحمدني يشكرني اذا أطلعته كما في قوله تعالى : « أنكروني »



أنكركم » ويعبدني معناها يطيعني . بأجابته دعائي . كما قال تعالى :  
« لا تعبدوا الشيطان » أي لا تطيعوه .

وإذا كان قد ورد في الفتوحات العبارة التي وردت سابقاً مما يفهم منها الوحدة بين الحق والخلق . وهي : سبحانه من خلق الأشياء وهو عينها . فقد ورد في كثير من المواضع ما يدل صراحة على أن العالم ما هو عين الحق تعالى ولا الحق عين العالم . ويستدل ابن عربي « على ذلك بدليل عقلي . وهو أنه لو كان عين الحق لما صح أن يكون الله سبحانه بديعاً (١) » .

وقد مر بنا في المحادثة التي تمت بينه وبين هارون النبي عليه الصلاة والسلام ما يشير إلى حقيقة رأيه وفي أنه لم يقصد هذا الانتماء بين الحق والخلق .

ولقد أفرد الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر مبحثاً خاصاً ينفي فيه عن الشيخ الأكبر ما الصفه به خصومه من دعوى الحلول والاتحاد مستشهداً على براءته بكلامه هو في الفتوحات وغيرها .

وكل ما ورد عنه من اللفاظ موهمة وجدت لدى ذاتي كلامه وفاهمي اشاراته متأولاً صحيحاً . ومن ذلك ما يرويهِ المقرئ في نفع الطيب عن محبي الدين بن عربي : « قال رحمه الله تعالى قال لي بعض أخواني لما سمع هذا البيت :

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

كيف نقول : أنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟  
فقلت له مرتجلاً :

يا من يراني مجرماً ولا أراه  
كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائماً

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٥ بتصرف .

ويعقب المقرئ على ذلك قائلاً : « من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ - رحمه الله تعالى - مؤول وأنه لا يقصد ظاهرة . وإنما له معاملة تليق به . وكفاك شاهداً هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد . وللتناس في هذا المعنى كلام كثير . والتسليم أحسن والله سبحانه يكلام أوليائه أعلم » (٢) .

ومما يحكيهِ المقرئ عن الياقيني قوله دفاعاً عن ابن عربي : « وما ينسب إلى المشايخ له محامل : الأول أنه لم تصح نسبته إليهم . الثاني بعد الصحة يلتبس له تأويل موافق . فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر غلب تأويل في الباطن لم تعلمه . وإنما يعلمه العارفون . الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغلبة . والسكران سكرًا مباحًا غير مؤاخذ ولا مكلف » (٣) .

هذا وابن عربي دائماً يؤكد أن تحصيل المعرفة لا يتم إلا عن طريق التقوى وسلامة العقيدة وقوة الإيمان وحسن العمل .

#### الحملات التي وجهت ضده :

وقد تعرض « ابن عربي » لمحنة قاسية في حياته وبعد مماته . بناء على ما ورد في كتبه المنطوقة والمنشورة من عبارات . وقف عندها البعض ولم يستطيعوا استساغتها . وقد مر بنا كيف أنه اتهم في أثناء زيارته لصر بالزندقة . وقبض عليه . وأوشك أن يلقى حتفه لولا أن قيض الله له من شفع له وتأول كلامه .

وقد عرضت كتب التراجم لكثير من الأسباب التي تذرع بها خصومه « ابن عربي » ومن بينها القول بوحدة الوجود التي أشرت إليها .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ .

كما عرضت أسماء خصومه وأسماء انتصاره .

وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية بعض الأسماء من هؤلاء وهؤلاء ، فنذكرت من المعارضين : ابن الخياط والحافظ الذهبي وابن تيمية وابن أبياس والتفتازاني ، وعلى القساري ، والإمام جمال الدين بن محمد بن نور الدين .

ونذكرت من المناصرين : مجد الدين الفيروزيبادي صاحب القاموس ، وسراج الدين المخزومي ، وكمال الدين الزمלקاني ، وقطب الدين الحموي ، وصلاح الدين الصفدي ، وشهاب الدين عمر السهروردي ومؤيد الدين الخجندی ، وكمال الدين الكاش ، وفخر الدين الرازي ، ومحمد المغربي أستاذ الجلال السيوطي ، وبيدر الدين بن جماعة ، وسراج الدين البلقيني ، وتقى الدين السبكي ، والجلال السيوطي ، وابن كمال باشا ، وعبد الرازق القاشاني وغيرهم .

وهي قائمة جديرة ببيان منزلة هذا الرجل الذي أجبر هؤلاء جميعا - وغيرهم - على أن يكتبوا عنه مهاجمين أو مدافعين .

بعض الأسباب التي أدت إلى الإنكار عليه :

أما الأسباب التي تدرج بها خصومه ، فمن بينها القول بوحدة الوجود ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

ومن بينها قوله ، بإيمان فرعون ، وهذا القول غير ثابت وزوده عن ، ابن عربي ، فقد تحقق كثير من العلماء بأنه قد دس عليه كثير من الآراء في كتبه . ذكر ذلك الشعرائي في البراقيت والجواهر ، وقرر بأنه ذكر في الباب الثاني والستين من الفتوحات بأن فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الأبد ، والفتوحات من أواخر مؤلفاته .

على أنه إذا ثبت ذلك في وروده عنه فإنه لم ينغرد وحده بهذا

الرأي ، فقد ذهب بعض السلف إلى قبول إيمانه لما حكى عنه الله أنه قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . وكان هذا آخر عهده بالدنيا ، وقال أبو بكر الباقلائي قبول إيمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال ، ولم يرد لنا نص صريح أنه مات على كفره ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس ، وإيمان أهل اليأس لا يقبل (١) .

وابن عربي في اجتهاده - على نص فرض ثبوت ذلك عنه - لا يؤدي إلى هذه الضجة التي أثبتت حوله وأخرجه أصحابها من دائرة أهل الإيمان إلى دائرة أهل الكفر ، ولعمري للفتوى بإيمان فرعون إيسر من الفتوى بكفر رجل من أهل اليقين والإيمان .

وقد أورد صاحب نفع الطبيب أن بعض العلماء تأول قول الشيخ محيي الدين بإيمان فرعون أن مراده بفرعون : النفس ، بدليل قوله :

قلبي قطبي . وقالبي أجفاني

سسرى خضسرى ، وعينه عرفاني

روحي هارون ، وكليمي موسى

نفسى فرعون ، والهوى هاماني (٢)

وعلى ذلك فيحمل كلامه على محمل الإشارات الصوفية التي يقدح فيها على كثير من العقول .

ومن الأسباب التي هوجم من أجلها ما كان يحدث به من لقاء بيته وبين أرواح بعض الأنبياء والأولياء السابقين على نحو ما سبقت الإشارة إليه ، وتلك حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده ، وقد ورد في بعض الآثار أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف

(١) البراقيت والجواهر ص ٦٦ .

(٢) نفع الطبيب ج ٧ ص ١١٦ .

منها اختلف وما تناكر منها اختلف \* وليس هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله ، فذلك هي الألفة التي تربط بين الأرواح العارفة برباط المعرفة المتين ، وليس ما يمنع لقاء هذه الأرواح التي لا يقف أمامها حجاب ولا يحول دون لقاءها حس \*

كما أن من الأسباب التي أدت الى ذلك ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام في قصائد غزلية يظنها السامع أو القارئ موجبة الى انسان ، ولكنها في الحقيقة موجبة الى معان روحية عميقة ، واستعمل فيها الألفاظ الحسية جريا على طريقة الصوفية في رموزهم وأشاراتهم \* وهو ليس وحده الذي استعمل الرموز في التعبير عن روحانياته ، ولكن كثيرا منهم لجأ الى ذلك لسببين في رأي الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان : أحدهما : أن كثيرا من نزعاتهم يخالف ظاهر الشريعة فلا يمكن الإفصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير ، ويحاولون الزج بهم في محاكمات تنتهي في بعض الأحيان بقتلهم ، والآخر أن اللغة العادية تنصير عن أداء كل ما عندهم من معان ، لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق ، ويعبرون عن ذلك بقولهم :

وإن قميصا خيط من نسج تسعة

وعشرين حرفا عن معاليك يقصر

فلم يجد الصوفية - إن - وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأتواهم إلا الرمز الذي لم يجر على قاعدة واحدة سار عليها الصوفية ، وإنما اختلف باختلاف الموضوعات التي تناولوها (١) \*

يقول الدكتور محمد مصطفى حلمي : « ومن هنا ذهب فريق من المتعصبين على التصوف والصوفية تعصبا قوامه سوء النية

(١) التصوف في الشعر العربي من ٨٧ \*

أو نقص الفطرة أو العجز عن فهم الحقائق الدقيقة ، والمعاني الرقيقة الى الارجاب بالصوفية والتشنيع عليهم ، والغض من القيم الروحية والمعاني الخفية التي تتطوى عليها الألفاظ والعيارات الغزلية والخمرية ، وأما أن هذه الألفاظ رموز وإشارات فذلك ما لا تفهمه عقول المتعصبين \* ومن هذا القبيل ما وقع في حق محيي الدين ابن عربي ، إذ ثار به وشنع عليه كل من العامة ورجال الدين عندما وقفوا على ما نظمته من شعر في حبه الإلهي \* (٢)

ومن الأسباب التي أدت الى مهاجمته ما كان يحدث به تجليات واشراقات كانت تحدث له ، لا يجد لها الناس علة عقلية ممكنة ومن ذلك ما حدث به في أثناء وجوده بمصر \* وليس بقريب أن تثير أمثال هذه الاشراقات والتجليات ثائرة الذين لم يشاهدوا ما شاهد ابن عربي \* وأمثاله ممن ساروا على هذا الدرب الشاق المضى \*

ولقد كان الشيخ الأكبر يتوقع ذلك فقد قال : « ولقد وقع لنا وللعارفين أمور ونحن بواسطة أظهارنا المعارف والأنوار ، وشهدوا فينا بالزندقة وأذوتنا أشد الأذى ، وصبرنا كرسول كذبه قومه وما آمن معه إلا قليل » (٣) \*

والشعراني أحد الذين وقفوا في صف ابن عربي ، ووصفه بأنه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقي قتالات سيجاته بالأنوار الساطعة الى يوم التلاق ، وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان وعدم الفهم وضعف الايمان (٤) \*

(١) الحب الإلهي في التصوف الاسلام الدكتور محمد مصطفى حلمي

ص ١٠ \*

(٢) البراءة والجواهر ص ٣١ \*

(٣) المرجع السابق ص ١٥ \*

والخوارق التي تظهر للأولياء إنما هي إكرامات الله لهم أفاضها عليهم تقوية لمزاياهم ، وحثا لهم على الجهاد وتأييسا لهم في مضيقهم نحو غايتهم ، وما يحدث لهم من إشراق على بعض الأجسام المادية إنما هو أثر من آثار تجلي الجمال الإلهي الذي يحيل الظلام نورا والحس معنى والمادة روحا ، وما ذلك إلا صدق لقول الحكيم العزيز ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . \*

ولقد كان لنا أخ اخذوه الله عنده ، حدثنا مرة أنه مرث عليه أوقات كان يرى فيها كل شيء أمامه نورا خالصا لا حدود له ، حتى الأجسام والحواجز والأشجار كانت في نظره كواش نورانية خالصة ، لذلك كان يتردد في أن يطلق عليها اسماءها العرفية لأنها لم تعد تنطبق عليها كما يراها في هذه الآونة . ولقد قضى هذا الأخ إلى جوار ربه راضيا مرضيا . \*

ولو تأملنا معنى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » لرأينا مصداق ذلك قسبحان من أشرق الوجود بنوره وعم العالم ضيائه . وقد ابتهل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . \*

ولعل الرافعي يقصد هذه المعاني بتعبيره : « فإن الكون كله جوهر واحد هو النور ، حتى الجبل هو نوري صخري ، وحتى البحر هو نور مائي ، وحتى الحديد والذهب والتراب كل ذلك نور صرفته القدرة الإلهية تصريفها المعجز ، فكان على ما ترى ، ظاهر مخيل يلائم نقصنا وعجزنا ، وحقيقة قادرة على غير ما نرى » (١) . \*

على أنه لا يمكن أن نبري بعض خصوم «أين عربي» من شهوة الحقد التي يبتلى الله بها بعض الناس فينكرون على الناجحين أحوالهم ، ويترصدون لهم الطرق ، ويبثون أمامهم الفتن ويترعون

الشوك ، ويدسون عليهم ما هم منه براء . محاولين بذلك الحط من قدرهم والإضعاف من شأنهم ، وتلك حالة عامة تكاد توجد في كل عصر ومكان . \*

قال المناوي : « وفريق قصد بالإنكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه لكونه وجد قريته ( ومعاصره ) يعتقدونه وينتصر له ، فعملته حمية الجاهلية على معاكسته ، فيبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه ، وقد شوهد عود الخذلان والضمول على هذا الفريق وعدم الانتفاع بعلومهم وتسايفهم على حسنها » (٢) . \*

ولو تتبعنا سير القادة والعظماء والمصلحين في كل زمان ومكان لوجدنا صحة انطباق هذه القاعدة التي لا تكاد تتخلف ، ويستشهد الشعرائي في طبقاته وفي غيرها من الكتب على صدق ذلك ببعض الحوادث التي وقعت للمصلحين والنايبيين ، ويشرب المثل بما لاقاه الأئمة المجتهدون من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأبن حنبل . وبما لاقاه ذو النون والسلمي وأبن خلكان والبسطامي والتشري والجندب والشاذلي والعز بن عبد السلام وغيرهم . \*

وليس بغريب ، فهذه المحن هي التي تصهر الرجال وتصنعهم . وقد صدق جل وعز ، إذ يقول « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ » وجاء في التوراة : ما كان رجل حلیم في قوم قط إلا بغوا عليه وحسدوه (٣) . \*

#### وجوع بعض المنكرين عليه عن انكارهم :

ولو استطلعنا كتب « أين عربي » الزاهرة لشهدت له بكل فضل ، وأثنت عليه الثناء الأوفى ، وآثاره شاهدة بفضله ناطقة

(١) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٦١ .

(٢) راجع البيهقي والجواهر ص ١٦ ما بعدها .

(٣) وحى القلم ج ٢ ص ٢١٥ .

بذكره الى جانب ما فاضت به السنة المعاصرين له من المنصفين ومن ساروا على نهجه وانتفعوا بعلومه وأدبه .

وقد شهد له كثير من هؤلاء بالتقدم والمعرفة التي كان من حقه علينا أن نثبت طرفا منها . كما رجع من الحط عليه بعض من أنكروا عليه أولا .

ومن هؤلاء « الحافظ الذهبي » وهو أبو عبد الله شمس الدين الذهبي الحافظ ، محدث وقته ولد سنة ٦٧٢ هـ وتوفي سنة ٧٤٨ هـ بدمشق . فقد شهد « لابن عربي » وقال في حقه : « أن له توسعا في الكلام ونقاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا في التصوف وتواليف جمعة في العرفان ، ولولا شطحة في كلامه وشعره لم يكن به بأس ، ولعل ذلك وقع منه في حال سكره وغيبته فيرجى له الخير » (١) وقال أيضا : « ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلا » (٢) .

ومنهم العز بن عبد السلام شيخ الاسلام والمسلمين ، وأحد أعلام الأئمة الشهوريين ولد سنة ٥٧٨ هـ وكان حسن المحاضرة لطيف الدرس وتوفي سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ينكر على ابن عربي في أول أمره فلما عرف مقامه شهد له ورجع عن إنكاره ، وقرر : أن محيي الدين قلب زمانه (٣) .

#### شهادة المحققين له :

ومن المعجبين بابن عربي الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط ، وهو شيخ الاسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد ابن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي ولد سنة ٧٢٩ هـ

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٢ .

وتوفي سنة ٨١٧ هـ ، وكان عظيم الاعتقاد في « ابن عربي » يحمل كلامه على خير محاملة ، وطور شرحه للخباري بكثير من كلامه ، والى كتابا للرد على « ابن الخياط » أحد خصوم ابن عربي سماء : الاعتباط بمعالجة ابن الخياط ، وقال عن ابن عربي « أنه شيخ الطريقة حالا وعلما ، وإمام الحقيقة حدا ورسما ومحیی رسوم المعارف فعلا واسما :

إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره غرقت فيه خواطره وهو عياب لا تذكره الدلاء ، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، وكانت دعواته تخترق السبع الطلياق ، وتفتقر بركاته قشلا الأفاق (١) .

وتحركات همة « الفيروزآبادي » في الدفاع عن « ابن عربي » حين وجد الجدل قد ثار حوله بسبب جمال الدين بن الخياط « الهمني » وكان قد كتب مسائل في درج ، وأرسلها الى العلماء ببلاد الاسلام ، وقال : هذه عقائد الشيخ محيي الدين بن العربي ، ذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لأجماع المسلمين ، مما أثار ثائرة بعض العلماء الذين يادروا من غير تثبت الى الطعن في ابن عربي (٢) . فدعا ذلك المنصفين ومنهم « الفيروزآبادي » الى التصدى لبيان الحق وإظهار وجه الصواب ، وتبرئة الشيخ الأكبر مما اللصقه به هؤلاء .

ومن ذكر « ابن عربي » بالخير الإمام العالم بالله تعالى « صلى الدين حسين بن جمال الدين الأزدی الأنصاري » في رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات عصره قال : « ورأيت بدمشق الشيخ الإمام المعارف الوحيد محيي الدين بن العربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ،

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٢) النبوغات والجواهر ص ٩ .

وما وقع له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتسانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا ، لا يكثر بالوجود مقبلا كان أو معرضا » (١) .

كما ذكره بقوله « هو الشيخ الإمام المحقق رأس أجلاء العارفين والحققين » (٢) .

وقال عنه الشيخ « محيي الدين محمد بن مسدى » في معجمه البديع المحقوى على ثلاثة مجلدات أنه : « خاض بحار تلك العبارات ، وتحقق بمحييا تلك الإشارات ، وتسانيف تشهد له عند أولى البصر بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات في مزالق الأقدام ، ولهذا ما ارتيت في أمره » (٣) .

ويُدفع عنه « ابن المعاد » بقوله : « وقع له في تضاعيف كتبه كلمات كثيرة اشكلت ظواهرها ، وكانت سببا لأعراض كثيرين ممن لم يحسنوا الظن به ، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين والعلماء العاملين والأئمة الزارئين : أن ما أوعته تلك الظواهر ليس هو المراد ، وإنما المراد أمور اضطلع عليها متأخرو أهل الطريق غيره عليها حتى لا يدعيها الكذابون ، فاصطلحوا على التكناية عنها بتلك الألفاظ المرمية خلاف المراد غير مبالين بذلك لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها » .

ويرى الشيخ « برهان الدين البهائي » في معجمه : « حكى لي أشيخ تقي الدين أبو بكر بن أبي الوفا المقدسي الشافعي قال : « وهو ( أي ابن عربي ) أمثل الصوفية في زماننا » (٤) .

ويعلل الشيخ « زين الدين الخافى » عبارات « ابن عربي » الموهمة بقوله : « إن العبد إذا تخلق ثم تحقق ثم جنب اضمحلت ذاته وذهبت صفاته وتخلص من السوى ، فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق فيطلع على كل شيء ويرى الله عند كل شيء فيغيب بآله عن كل شيء » (٥) .

وقال الخافى « والذي اعتقده ولا يصح غيره أن الإمام « ابن عربي » ولى صالح وعالم ناصح ، وإنما فوق اليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه » على أنه دست في كتبه مقالات قدره يجل عنها « . وفي رسالة « لابن كمال باشا » وجهها في توضيح مناقب « ابن عربي » جاء فيها : « أنه مجتهد كامل ومرشد فاضل ، له مناقب عجيبة وخوارق غريبة وتلامذة كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء ، فمن أنكره فقد أخطأ ، وإن أصر في إنكاره فقد ضل يجب على السلطان تأديبه » .

وتذكر دائرة معارف البستاني عنه « وقد أجمع المحققون على جلالتة في سائر العلوم كما تشهد بذلك كتبه ، وما أنكر عليه من أنكر إلا لبقه كلامه لا غير . فأنكروا على من يطالع من غير سلوك طريق الرياضة خوفا من حصول شبهة في معتقده » (٦) .

وسئل عن « ابن عربي » الشيخ « قطب الدين العمري » حين رجع من الشام ، فقبل له : كيف وجدت الشيخ محيي الدين ؟ فقال : وجدت في العلم والزهد والمعارف بحرا زائرا لا ساحل له . قال وأنشدني الشيخ بلفظه من جملة أبيات :

تركنا البحار الزاخرات وراءنا

فمن أين يدري الناس أين توجهنا (٧)

(١) شلوات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) دائرة معارف البستاني ج ١ مادة ابن عربي .

(٣) نفع الطيب ج ٧ ص ١٥٩ .

(٤) شلوات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١١٣ .

(٢) دائرة معارف البستاني ج ١ مادة ابن عربي .

(٣) نفع الطيب ج ٧ ص ١٥٩ .

(٤) شلوات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

وقال عنه صلاح الدين الصفدي : « من أراد أن ينظر الى كلام أهل العلوم الدينية فلينظر في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله » (١) .

ونذكر الشعراني في كتابه البواقيت والجواهر وفي غيره من الكتب عددا كبيرا من المثنيين على « ابن عربي » وكلهم من الأعلام الأفاضل مثل قطب الدين الشيرازي ، ومؤيد الدين الجخندي ، وقطر الدين الرازي ، ومحيي الدين النوري ، والامام ابن سعد الياضي ، ومحمد المغربي الشاذلي شيخ جلال الدين السيوطي ، وسراج الدين المخزومي ، ويذكر الدين بن جماعة ، كما ذكر جملة من اقوالهم التي يمجدون فيها الشيخ الأكبر وينسبونه الى الفضل والكمال .

وعن الشيوخ من ألف كتباً في الدفاع عن ابن عربي ورد المعارضين عنه كما حدث من الفيروزبادي والشعراني ، وكما حدث من جلال الدين السيوطي الذي ألف كتاباً سماه تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي . رداً على كتاب : تنبيه الغبي الى تفكير ابن عربي ، الذي ألفه برهان الدين البقاعي ، وكما حدث من سراج الدين المخزومي الذي ألف كتاباً سماه : كشف الغطاء عن أسرار محيي الدين .

وجملة القول : فإن ، الذين اكبروا ابن عربي اكباراً خالصاً وحسن اعتقادهم فيه بحيث لم نشبهه شائبة من تشكيك فيه أو تكفير له ، فكتيرون لا يتسع المقام لأحصائهم واستقصاء آرائهم » (٢) . وحسبنا ما ذكرنا منهم على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء .

(١) البواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٢) ابن الفارض سلطان المائقين ص ٨٧ .

## آثار ابن عربي

### (١) أولاده :

ذكر المقرئ في نفع الطيب أن « ابن عربي » ولد له غلام في « حلتية » في رمضان سنة ٦١٨ هـ في أثناء رحلته اليها وقد أسماه « سعد الدين » .

وقد شب هذا الغلام على نهج أبيه ، فسمع الحديث وقام بالتدريس ونبغ في الأدب وقال الشعر الجيد الذي جمع في ديوان وقد توفي سنة ٦٥٦ هـ .

وله ابن آخر اسمه عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عربي توفي بالصالحية سنة ٦٦٧ هـ ، ودفن هذان الأخوان بجوار أبيهما في سفح جبل قاسيون بقربة القاضي ابن الزكي الذي كان يجلس الشيخ اجلاً عظيماً وانزله داره وأجرى له عطاء يومياً قدره ثلاثون درهماً وزوجه ابنته فلما توفي دفن بعدافن أسرته .

كما أعقب « ابن عربي » بنتاً اسمها « زينب » وقد ذكر أبوها عنها أنها منذ طفولتها الأولى كانت تصاحبها آيات خارقة .

## ( ب ) تلاميذه وأخوانه :

للشيخ الأكبر تلاميذ وأخوان كثيرون ، يضيئ المقام عن الحديث عنهم بالتفصيل ، ولكننا نشير إلى بعضهم .

فمن تلاميذه الذين تحدث عنهم في كتبه : بدر الدين الحبشي . وكان ملازماً له ، وأثيراً لديه . وقد أشار في كتابه الفتوحات المكية إليه بقوله :

وأما رفيقي فضياء خالص ونور صرف حبشي اسمه عبد الله بدر لا يلحقه خسف يعرف الحق لأهله فيؤديه ويوقفه عليهم ولا يعديه قد نال درجة التمييز وتخلص عند السبك كالذهب الأبريز ، كلامه حق ووعده صدق . وقد صاحب الشيخ مدة ٢٣ سنة . وتوفي في ملطية . مقدمة الفتوحات ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويذكر بعض المؤلفين أن من تلاميذه ابن الغارض . واتجه النابلسي شارح ديوان عمر بن الغارض هذا الاتجاه عند شرحه لبعض قصائد الديوان (١) .

ومن تلاميذه وأبرزهم : صدر الدين المقنوني . واسمه محمد ابن اسحاق الذي كان له فضل كبير في المحافظة على مؤلفاته ونشر تعاليمه وعلمه .

ومن أصدقائه الكثيرين الذين كان يجلبهم الشيخ « أبو محمد ابن عبد العزيز التوتوسي » الذي امتضاف ابن عربي في أثناء زيارته لتونس .

ومنهم : مكين الدين الأصغاني ، امام مقام ابراهيم بمكة .

ومنهم : فخر الدين الرازي ، الذي كان يكاثره كثيراً .

(١) راجع إلى الغارض سلطان العارفين ص ٩٢ .

ومنهم « أبو العباس الحرار » صاحب المناقب المشهورة .

ومنهم « أبو عبد الله زكريا بن محمود القاضي المعروف بالقزويني » صاحب عجائب المخلوقات وغيره من الكتب . وغير هؤلاء كثير .

## ( ج ) مؤلفاته :

الشيخ الأكبر ترك عددا لا يحصى من المؤلفات ، ويبدو أن كثيرا من هذه المؤلفات قد فقدت ، فقد حدث الفيروزآبادي : « وقعت على إجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها ، وأجزته أن يروى عنى مصنفاتي ومن جعلتها كذا وكذا ، حتى عد نيفا وأربعمئة مصنف » (١) .

وقد ذكرت مصادر مختلفة أن ابن عربي له ما يقرب من ثلاثمائة مصنف ، فدايرة المعارف الإسلامية تقول « ويبلغ ما بقي من تواليه حانة وخمسين كتابا ، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربي في الواقع » (٢) .

وتقول دائرة المعارف البريطانية ، أنه كتب ٢٨٩ كتابا تعرف منها ١٥٠ كتابا ذكرها بروكلمان في كتابه الأدب العربي (٣) .

وقد بذل « بروكلمان » المستشرق الألماني مجهودا مشكورا في حصر ما بقي من كتب ابن عربي ، وضعتها موسوعته الضخمة التي تضم أسماء الكتب والمؤلفين العرب ، وأقرده لهذه الكتب ما يقرب من ثمانين صفحة تحمل الأولى منها رقم ٥٧١ .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٢٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ عادة ابن عربي .

(٣) دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٢ ص ٢٢ .



وهذا ثبت باسماء هذه الكتب التي تذكرها بروكلمان (١).

- ١ - أجازة للملك المنظر بهاء الدين غازي الملك العادل في جميع ما رواه عن أشياخه وما له من نثر ونظم . وهو في دمشق سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٢٤ م ٢٠ - رسالة في تعليم المريدين ٢٠ - كتاب العظمة (تفسير للفتاحة) ٤٠ كتاب التفسير بالحقيقة ٥٠ - مشكاة الأنوار فيما روي عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار ٦٠ - الأحاديث القدسية ٧٠ - تذكرة الخواص وعقيدة أهل الاختصاص ٩٠ ٨٠ - رسالة العلوم من عقائد علماء الرسوم (مختارات) ١٠٠ - صحيفة اليوم بحوادث الروم (شعر باليسيط) ١٤٣ بيتا ١١٠ - الفتوحات الملكية في معرفة الأسرار الملكية واللكونية ١٢ - فصوص الحكم ١٢ - شجرة الوجود والبحر المورود - مطبوع تحت شجرة الكون ١٤ - عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب ١٥ - رسالة كتبه ما لا يد للمريد منه ١٦ - الأسرار إلى المقام الأسرى (في نص المخطوط يوجد عنوان : الأسرار واختصار رحلة العالم الكوني إلى الموقف الأعلى) ١٧ - مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية ١٨ - التدبيرات الإلهية في إصلاح الملكة الانسانية ١٩ - مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ٢٠ - مقام القرية (فك الكربة) ٢١ - الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار ٢٢ - الخلوة ٢٣ - انشاء الدوائر الاحاطية على الدقائق على مضاهاة الانسان للخالق والخالق ٢٤ - الحق ٢٥ - عقلة المستوفز ٢٦ - تمعة السفرة إلى حضرة الكرام البررة ٢٧ - الحجب ٢٨ - وصف تجلي الذات (منسوب إليه) ٢٩ - حلية الأبدال وما يظهر فيها من المعارف والأحوال ٣٠ - شجون المشجون وقتون المفتون ٣١ - الشواهد

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ج ١ ص ٥٧١ .

- ٢٢ - الاتحاد الكوني في حضرة الشهاد العيني ٢٣ - كيمياء السعادة ٢٤ - الإفاضة لمن أراد الاستفاضة ٢٥ - منزل المنازل ٢٦ - الموزانة (مقارنة بين الدنيا والآخرة) ٢٧ - نحت الأرواح (كيف خلق الله الروح والمنازل التي لابد لها أن تمر عليها لمعرفة الله) ٢٨ - الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من الشروط ٢٩ - الاعلام فيما بنى عليه الاسلام ٤٠ - الاعلام بإشارات أهل الانعام (الحكمة الانلغامية في الرد على الفلسفة) ٤١ - الفناء في المشاهدة ٤٢ - مراتب علوم الوهب ٤٣ - في الأزل ٤٤ - شق الجيب ورفع حجاب الريب عن أظهار أسرار الغيب ٤٥ - تفسير آية الكرسي ٤٦ - اشارات القرآن في عالم الانسنان ٤٧ - كتاب السبعة وهو كتاب الشأن ٤٨ - تنزيلات الاملاك للأملاك في حركات الأفلاك ٤٩ - توحيد التوحيد ٥٠ - التدقيق في بحث التحقيق ٥١ - القسم الإلهي باسم الرياني ٥٢ - المضادة في علم الظاهر والباطن ٥٣ - الغايات فيما ورد من الغيب في تفسير بعض الآيات ٥٤ - تاج الرسائل ومفاج الوسايل ٥٥ - الرسالة المفيدة ٥٦ - الدرر الفاخرة في ذكر من انتفعت بهم في الآخرة ورسالة روح القدس (رسالات القدس في نفحات النفس) ٥٧ - الجلالة ٥٨ - جواب عن مسألة المسيحية السوداء وهي الهيولا ٥٩ - رسالة النشاطين ٦٠ - مفاتيح الغيب ٦١ - تهذيب الأخلاق ٦٢ - الدخيل إلى معرفة مأخذ النظر في الأسماء والكنائيات الإلهية ٦٣ - القطب والنباء ٦٤ - مسائل المسائل ٦٥ - تاج التراجم ٦٦ - ترجمان الألفاظ المصمدية ٦٧ - الاصطلاحات الصوفية ٦٨ - شرح الألفاظ التي تداولها الصوفية ٦٩ - المقتنع في ايضاح السهل الممتنع ٧٠ - الحروف الثلاثة التي انعطفت أواخرها على أوائلها ٧١ - الألف وهو كتابة الأحذية ٧٢ - الباء وهو مفتاح دار الحقيقة ٧٣ - كتاب الباء وهو كتاب السهو ٧٤ - مفتاح

الجفر الجامع ٧٥٠ - جفر الامام على بن ابي طالب ٧٦٠ - اسرار الحروف ٧٧٠ - جفر النهاية ومبين خبايا اسرار كنوز البداية والغاية ٧٨٠ - فائدة (الالعب السحرية بالحروف) ٧٩٠ - مائة حديث وواحد قدسية ٨٠٠ - نسب الخرقه ٨١٠ - التجليات الالهية ٨٢٠ - عظة الالباب ونخيرة الاكتساب (منسوب اليه) ٨٣ - انشاء الجسوم الانسانية ٨٤٠ - نتيجة الحق ٨٥٠ - عيون المسائل ٨٦٠ - توقيعات ٨٧٠ - اسرار الوجود ٨٨٠ - اسرار الحية ٨٩٠ - بلغة الغواص في الاكوان الى معدن الاخلاص في معرفة الانسان ٩٠٠ - قيس الانوار وبهجة الاسرار ٩١٠ - الفرق الست الباطلة وذكر اعدادها ٩٢٠ - الاجوبة الثلاثة عن الاسئلة الفاتنة ٩٣ - الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة ٩٤ - مرآة المعاني لادراك العالم الانساني ٩٥٠ - ثواب قضاء حوائج الاخوان واغاثة اللهفان ٩٦٠ - الامام المبين الذي لا يدخله ريب ولا تخمين ٩٧٠ - التنزيلات الموصلية ٩٨٠ - جدول عظيم في استخراج العقل من القرآن العظيم ٩٩٠ - اسفار من سفر نوح ١٠٠٠ - رسالة العبادة ١٠١ - شرح كتاب خلع النملين في الوصول الى حضرة الجمعين ١٠٢ - رسالة في الاحدية (مسئلة حكيم ترمذى) ١٠٥٠ - رسالة ارسلها لأصحاب الشيخ عبد العزيز بن محمد المهدي ١٠٦٠ - رسالة الغوثية ١٠٧٠ - رسالة ارسلها الى فخر الدين الرازي ١٠٨٠ - رسالة في تصوير ادم على صورة الكمال ١٠٩٠ - اربع رسائل تصوف ١١٠٠ - نسخة الحق ١١١٠ - لغة الأرواح ١١٢٠ - الصلاة الاكبرية ١١٣٠ - اورد الايام والليالي ١١٤٠ - اورد الاسبوع ١١٥٠ - الصلاة الفيزية ١١٦٠ - وصية ١١٧٠ - الحكم الالهية ١١٨٠ - المصحف الناموسية والسجف الناموسية ١١٩٠ - الشجرة النعمانية في النبوة العثمانية ١٢٠٠ - حكم ١٢١ - العبادة ١٢٢٠ - الملح الافقية ١٢٣٠ - محاضرات الابرار ١٢٤٠ - ترجمان الاشواق ١٢٥٠ - ديوان (الديوان

الاكبر) ١٢٦٠ - ديوان الاشواق (الهجاء الامجد على ترتيب حروف الابد) ١٢٧٠ - ديوان المرتجلات ١٢٨٠ - المبشرات ١٢٩٠ - تنزل الأرواح بروح الاله ١٣٠٠ - القصيدة الثانية ١٣١٠ - منهاج المعارف والمثقى ومعراج المسالك والمرتقى ١٣٢٠ - المبشرات الميمونة ١٣٣٠ - قصيدة في المناسك ١٣٤٠ - الجواب المستقيم ١٣٥٠ - رسالة تحقيق وجوب الواجب لذاته ١٣٦٠ - في سر الحروف ١٣٧٠ - تجمعات الافلاك ١٣٨٠ - الدرر ١٣٩٠

وقد ذكرت دائرة المعارف للبستاني له ما يقرب من خمسين مؤلفا من بين هذه المؤلفات ، وهذه المؤلفات التي ذكرت على ضخامة عددها هي نصف مؤلفات ابن عربي فقط ، على رأى الذى يقول أن مؤلفاته مائتان وثمانون كتابا أو ثلاثمائة كتاب ، وهي ثلث مؤلفاته عند من يقول نيف وأربعمائة كتاب .

وأيا كان هذا أو ذاك فهو نتاج ضخم يشهد لصاحبه بالمقدرة الخارقة الفاتنة ، وهو وإن كان بعض هذه الكتب صغير الحجم ، الا أن بعضها كبير الحجم ، فقد بلغ احد تفاسيره ستين سفرا (١) ولم يتمه ، فقد وقف فيه عند قوله تعالى « وعلمناه من لدنا علما » وله تفسير آخر صغير في ثمانية اسفار ، وكتاب الفتوحات المكية بلغت فصوله خمسين وستمائة في أكثر من أربعة الاف صفحة مطبوعة بحروف صغيرة وقد حققته أخيرا الهيئة المصرية العامة للكتاب ونشرته في طبعة انيقة صدر منها عدة اجزاء . على أن المسألة ليست بكثرة الأوراق وتضاعف الاجزاء ، ولكنها بما تحويه هذه الأوراق من اسرار ومعارف ، والشيخ

(١) تلح الطيب ج ٧ ص ١٢٩ عامش .

الأكبر له في ذلك القدر الملقى والشار الذي لا يلحق بشهادة فعول العلماء وأجلانهم .

والملحوظ أن تأليف الشيخ الأكبر تدور حول التصوف فيما عدا أحد تفسيريه الذي يجري فيه على طريقة التفسير التقليدي ، ولم يتم هذا التفسير ، أما التفسير الآخر فيجري فيه على طريقة الصوفية في إشاراتهم وأتواقهم . على أن بعض الآراء تقول أن هناك تفسيراً مدسوساً عليه نشرت منه بعض نور النشر عدة أجزاء ثم توقف لذلك .

وله من الحديث عدة كتب في كل منها مجموعة من الأحاديث القدسية . وله بدار الكتب كتاب لم يشر إليه بروكلمان يحمل اسم « أصول الفقه » برقم ٦١٢ . أما بقية كتبه فتتناول فيها التصوف ودقائقه وأسراره ، حتى الكتب الأدبية كتب صوفية بما في ذلك « محاضرة الأبرار » الذي يحشد فيها كثيراً من الأسرار الصوفية وقصص المتصوفة وبعض هذه الكتب دقيق غريب ككتاب « الدوائر » الذي يشرح فيه بالأشكال الهندسية آراءه في الكون .

ويفسر في كتاب مواقع النجوم أسرار العبادات ومراحل الطريق في الوصول إلى الله وقد ألفه في « المرية » باللهام من الله وتوجيهه منه .

ويبدو أن الشيخ الأكبر في كتاباته كان يخضع لهذا التوجيه وذلك الإلهام ، فإنه قرر في أكثر من موضع أن ذلك الكلام لم يكن اختياراً له ولكنه من الهام الله . نقل عنه الشعراني في الكبريت الأحمر قوله : « وأعلم أن جميع ما أتكلّم به في مجالس وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فإني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه ، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى ومناجاته بكلامه » وكذلك قوله « وأعلم أن جميع ما أكتبه في تأليفي

ليس هو عن روية وفكر ، وإنما هو من نثرت روعي على يد ملك الإلهام » وكذلك قوله « جميع ما كتبت وأكتبته في هذا الكتاب إنما هو من إلهام الله والقاء رباني أو نثرت روحاني كل ذلك بحكم الأثر للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال » (١) .

وكل كتبه تحتاج إلى دقة فهم وحسن ظن في التوفر على مطالعتها حتى يتمكن القارئ من معرفة مقاصدها . وقد أشار هو إلى ذلك في الباب الثاني من الفتوحات بقوله « أقل درجات أهل الأنس مع القوم التسليم لهم فيما يقولون » وأعلّاهما القطع بصدقهم وما عدا هذين المقامين فخرمان » (٢) .

ولكي تدرك ذلك لابد من القاء الضوء على بعض كتبه التي كانت لها أهميتها الفائقة في جميع الآفاق العلمية والعقلية . وهذه الكتب هي الفتوحات المكية ، وقصص الحكم .

#### ١ - الفتوحات المكية :

ألف الشيخ الأكبر هذا الكتاب في مكة على فترات ، وهو أجمع كتاب في التصوف ، وتعتبره دائرة المعارف البريطانية دائرة معارف التصوف ، وكان هذا الكتاب - ولا يزال - له أهمية كبرى بين رجال الطريق ، فقد عبر فيه ابن عربي عن كل أدواق ومشاهداته وسجل فيه بدقة كل مراحل سيرته . حتى لقد استقى منه بعض المترجمين لحياته دقائق سيرته .

بدأ ابن عربي كتابه الفتوحات عقب ذهابه إلى مكة . وهناك شاهد في الطواف حول الكعبة . وفي الإقامة فيها من الأسرار والمشاهدات ما أراد أن يوقف عليه إخوانه المقربين إليه . وفي

(١) الكبريت الأحمر ص ٤ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٦ .

مقدمتهم الشيخ أبو محمد عبد العزيز التونسي وتلميذه بدر الدين الحبشى ، ولذلك كان عنوانه : الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية .

والكتاب ضخيم يحتوى على أربعة أجزاء ضخمة ، وكل جزء يحتوى على مجلدات ، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات الى ستة أقسام :

- ١ - القسم الأول : المعارف ويحتوى على ثلاثة وسبعين بابا
- ٢ - القسم الثانى : المعاملات ويحتوى على ستة عشر ومائة باب
- ٣ - القسم الثالث : الأحوال ويحتوى على ثمانين بابا
- ٤ - القسم الرابع : المنازل ويحتوى على أربعة عشر ومائة باب
- ٥ - القسم الخامس : المنازلات ويحتوى على ثمانية وسبعين بابا
- ٦ - القسم السادس : المقامات ويحتوى على تسعة وتسعين بابا

فجعلها أبوابه ستون وخمسمائة باب ، تتناول شتى العلوم والمعارف الصوفية ، كما تتناول غيرها من العلوم ، والمعارف الأخرى التى يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك - يقول عنه الشعراوى : « طالعت من كتب القسوم مالا احصيه وما وجدت كتابا اجمع لكلام اهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ، لا سيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة ، وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أموالهم ، فإن نظر فيه مجتهد من الشريعة ازداد علما الى علمه واطلع على أسرار في وجوه

الاستنباط وعلى تعليقات صحيحة لم تكن عنده ، وأن نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أو مقرأ فكذلك ، أو معبر للمقامات فكذلك ، أو نحوى بالطبيعة وصنعة الطب فكذلك ، أو عالم بالهندسة فكذلك ، أو نحوى فكذلك ، أو منطقى فكذلك ، فهو كتاب يفيد اصحاب هذه العلوم أو غيرها ، علوما لم تخطر لهم على بال ، قد اشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » (١) .

وكتاب الفتوحات نظرا لضخامته لا يمكن أن يكون قد ألف في مدة محدودة ، وأن كان بعض المصادر يشير الى أنه كان يكتب كل يوم منه ثلاث كراسات دون توقف أين كان (٢) وقال الفيروزآبادى : أنه صنف الفتوحات في مكة كتبها عن ظهر قلب جوابا لسؤال سألته عنه تلميذه بدر الحبشى ، ولما فرغ منها وضعها في سطح الكعبة العظيمة ، فاقامت فيه سنة ثم انزلها فوجدتها كما وضعها لم يبدل منها ورقة ولا لعبت بها الرياح مع كثرة أمطار مكة ورياحها ، وما أنزل للناس في كتابتها وقراءتها الا بعد ذلك (٣) .

ولكن يبدو أن ذلك كان بخصوص بعض الكتاب لا كل الكتاب ، فإن الثابت أن هذا الكتاب كان آخر كتبه تأليفا ، ذكر ذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاشى في نفع الطيب (٤) كما ذكر أنه قد انتهى من تأليفه سنة ٦٣٦ هـ ، وكان في ذلك الوقت مقبلا بدمشق قبل وفاته بعامين ، كما أنه من الثابت أيضا أن هذا الكتاب لم يمكن تأليفه متتابعاً ، ولكنه ألف على فترات ، ولم يتم تأليفه أيضا على حسب

(١) الكبريت الأحمر القديمة .

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) البراءة والجرار ص ١٠ .

(٤) نفع الطيب ج ٧ حاشى ص ١٣٦ .

الترتيب المتعارف ، فقد ذكر اسين بلاثيوس انه في سنة ٦٢٨ هـ كان يكتب أول الجزء الرابع ، وانه في سنة ٦٢٤ كان لا يزال يكتب خاتمة الجزء الثاني وفي السنة التالية ٦٢٥ كان يكتب الجزء الثالث ، وليس هناك من يفسر سبب ذلك الا ما ذكره هو بأن ترتيب الفتوحات لم يكن من وضعه هو ، ولكن كان بناء على ما كان يعمل عليه من توجيهات سماوية ، ولذلك نسمعه يقول : بنيت كتابي هذا - بن بناء الله لا أنا - على افادة الخلق ، فكله فتح من الله تعالى وسلكت فيه طريق الاختصار .

ويقول الدكتور عثمان يحيى في مقدمة تحقيق الفتوحات انه بدأ في تصنيفه بمكة عام ٥٩٩ هـ ، وأتم سفره الأول تقريبا في هذه السنة نفسها فيماعداء فصلين اضافهما فيما بعد ثم تابع الاسفار الباقية ، ويظهر انه اكتملت لديه نسخة أولى من الكتاب أخذ يهذ بها وينقحها في السنوات الأخيرة من حياته ، وهو يصورح في آخر الفتوحات انه كتب نسخة ثانية بخط يده وفرغ منها عام ٦٢٦ هـ قبل موته بعامين .

وليس من اليسير اعطاء فكرة ولو موجزة عن هذا الكتاب الذي يعد كنزا دفيناً ، على حد تعبير مؤلف كتاب ابن عربي . اللهم الا اذا قلنا كما قال السادة الصوفية عنه : انه اجمع كتاب للتصوف بما احتوى عليه من دقائق التصوف وارشاداته ، ومن الموضوعات العامة للكتاب السابق الاشارة اليها يمكن ادراك ذلك بوضوح . كما انه لم يعمل العلوم الأخرى ، حتى انه لم يجد فيه كل مطلع بقيته ورغيته .

ويغلب على كتاب الفتوحات الاستطراد الذي يبعث عليه الرغبة في الافادة التي هدف اليها من وضع كتابه ، كما انه لم يغفل في كتابه ما يحتاج اليه المرید من خطوط أساسية تعينه على بلوغ هدفه وسيره في طريقه بآمان . وكثيرا ما يشير فيه الى كتبه السابقة .

ولم يغفل ابن عربي ما يجب على المرید معرفته من أسرار العبادة وأدائها ، مقدما له في الجزء الأول زادا كافيا في النية والطهارة وأنواعها وأسرارها والصلاة وغروضها وشرائطها وأركانها وسننها وأوقاتها وأدائها وكيفية إقامتها وأسرار أدائها وغير ذلك من ألوان المعرفة الفقهية والشرعية التي تصل بالمرید الى أبواب المعرفة الصوفية الشاملة .

ويعد كتاب الفتوحات سجلا لحياة الشيخ الأكبر ، فقد بين فيه بالتواريخ خطوات حياته التي أفاد منها بعض المترجمين لها . كما انه يعد سجلا لما شاهده في تاريخ هذه الحياة الصافلة بالأسرار والأنوار وما كشف له فيها وما لاقاه من مصاعب وما أتيح له فيها من فرص روحية .

على أن ذكر هذه الخطوات لم يأت على نظام كتابة المسير المعروفة ، ولكنه يأتي عفوا على حسب ما تسنح به المناسبة ويستدعيه المقام . فهو عند حديثه عن الأبدال مثلا يذكر من لقيه منهم ومتى ، ويسجل ما دار بينه وبينهم من حديث . وعند حديثه عن التوكل يذكر من لقيه من المتوكلين ومتى وأين وكيف كان حديثه معه وماذا أفاد منه .

وعند حديثه عن الخضر يذكر طرفا من لقائه معه وماذا دار بينهما من حديث وهكذا .

ومن الكتاب ندرك أن تأليفه لم يكن يسير على تعط الكتب العادية التي تجري على منهج معين وتسير على حسب خطة موضوعة . ولكنه يسير على وفق ما يجري به الخاطر الروحي وقد ذكر ذلك في غير موضع ويقول : : وأعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكري ، وإنما الحق تعالى يعمل لنا

على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبهه بقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » بين آيات ملاق ونكاح وعدة وفاة تتقدمها وتتأخرها (١) ويقول « اعلم أن العارفين انما كانوا لا يتقنون بالكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الالهية مراقبة لما يبرز منها فمعها برز لها أمر بادرت لامثالته ، وألفتة على حساب ما حولها ، فقد تلقى الشيء الى ما ليس من جنسه امثالاً لأمر ربها » (٢) .

وفي أول بعض الأبواب نجد قصيدة من الشعر تشيير الى مضمون الباب وقد لا تشيير اليه وهذه الطريقة سار عليها الجيلي من بعده في كتاب الانسان الكامل . وقد اشار الشيخ الأكبر نفسه الى هذه الملحوظة ، وهي عدم اجمال موضوع الباب في القصيدة المقدمة في بعض الأحيان بقوله : واعلم أن هذه القصيدة وكل قصيدة من أول كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها اجمال ما يأتي مفصلاً في نثر الباب والكلام عليه ، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب فلا يتكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر ، فليُنظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه نفس الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها الا أن يكون بين المسائلتين رابطة فيطلب بعضها بعضاً .

ونظراً لخطورة هذا الكتاب وما يحتوي عليه من معلومات اثارت معارك جدلية غير قليلة برز الاهتمام به بين الصوفية وغيرهم .

- (١) الفتوحات المكية الجزء ٣ الباب ٣٤٨ .  
(٢) الكبريت الأحمر : المقدمة .

ويبدو أن بعض المعرضين قد أضاف اليه ما ليس منه مما يعد منافياً للشرعية بقصد الاضرار بمؤلفه ، وحين قوبلت هذه النسخ المحرفة بالنسخة الأصلية ظهر الزيف وكانت النسخة الأصلية محفوظة « بقونية » .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك كثيراً من القضايا الواردة في الفتوحات ليس من الممكن فهمها بسهولة ، ويرجع ذلك الى أن ادراكها لا يتم الا لتمكن من الطريق الصواب ، ومن هنا جاء التنبيه الى انه لا يحق لكل من اراد الاطلاع أن يطلع على هذا الكتاب . وهذا الحكم ليس منصرفاً في الواقع الى كتاب الفتوحات وحده ولكنه ينصرف الى الفتوحات وغيره من الكتب التي ألفها الشيخ الأكبر .

وقد شرح الجيلي كتاب الفتوحات ، كما تأثر به في كتابه المشهور « الانسان الكامل » في معرفة الاواخر والأوائل .

واختصره الشعراني في كتاب « لوائح الأنوار القدسية » . وعاد فاختصره مرة أخرى من كتابه « الكبريت الأحمر » ، وذكر في كتاب « اليواقيت والجواهر » مسائل متعددة منه ومن ذلك مثلاً قال « محيي الدين بن عربي » في حصة العارف بالله :

« هو من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق تعالى وإذا ذكر الله واستولى عليه الذكر يغيث عن الأكوان ، يهابه كل ناظر اليه ، هو مع الله بلا وصل ولا فحل ، كثير الحياء ، في قلبه التعظيم ، يقدم حق الحق تعالى على حفظ نفسه ويطنه جاش ، ويدنه عار ، لا يأسف قط على شيء لكونه لا يرى غير الله . طيار أمد الدهر ، تبكي عينه ويضحك قلبه ، هو كالارض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يطل كل شيء ، وكالمطر يسقي ما يجب وما لا يجب ، لا يقضى وطره قط من شيء ، وذلك ليديم

افتقاره الى الله تعالى ذوقا ، شأنه الفقر والذل بين يدي الله يفتح له في فراشه كما يفتح له في صلاته وان اختلفت الواردات بحسب المواطن .

والفتوحات مقدمة طويلة لها قصة طريفة ، هي انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد احاط به الملائكة والانبياء والاولياء والعلماء فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم للصعود على منبره ، وخلق عليه بردته البيضاء ، والقي ابن عربي خطبة طويلة يقول انها من وحى روح القدس ، وهذه الخطبة هي مقدمة الكتاب .

والمقدمة نفسها تحتوي على آرائه الروحية التي يوضح فيها مضمون موضوعات الكتاب السابق الاشارة اليها .

وبالجملة فان هذا الكتاب من الكتب التي تستحق جهد المهتمين بشئون التصوف ، فيتلونه بالتحقيق ويتعهدونه بالنشر وجودة الطبع في ثوب انيق جميل يليق بما يحتويه من علوم رائعة وامرار فائقة وذواق عالية - ويا حبذا لو تيسر اقتناؤه مع غيره من كتب هذا العبقري الفذ الذي كان يخلق في اجواء المعرفة لا يهدأ له بال ولا يستريح من غناء التجوال - وترك من ورائه هذه الثروة الحية التي تشهد بعلو الباع ورسوخ القدم وقوة التمكن .

وحمد الله فقد تحقق جزء من هذه الأمنية العزيزة حين تضافر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وجامعة السوربون على تحقيق هذا الكتاب ونشره عن طريق الهيئة المصرية العامة للكتاب وقد شارت ضجة اشترت اليها سابقا ، وان كان هناك تعقيب على هذه الضجة التي قامت من أجل هذا الكتاب وعقيدة صاحبه فمسيى ان أقدم هذه الفقرات التي وردت في أول الجزء الأول منه :

« يا اخوتي المؤمنين - ختم الله لي ولكم بالحننى - اشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير الى الله تعالى في كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه ، اشهدكم على نفسه بعد ان اشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه انه يشهد قولاً وعقداً ان الله تعالى اله واحد لا ثانى له في الوهيته منزّه عن الصحابة والولد ، مالك لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار الى موجد يوجد به بل كل موجود سواء مفقّر اليه تعالى في وجوده ، فالعالم كله موجود به وهو وحده متصف بالوجود لنفسه ، فسحباته من بعيد دان عظيم السلطان عيم الامسان ، كل ما سواه عن وجوده فائض .

كذلك اشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه واياكم على نفسى بالايمان بمن اصطفاه واجتباه من وجوده ، ذلك مسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي ارسله الى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً .. واني مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمته وما لم اعلم ، فهذه شهادتى على نفسى امانة عند كل من وصلت اليه ان يؤديها اذا سئلها حيثما كان . »

هذا وان كان ابن عربي قد اثره الله بشيء من الكشف واعطاه جزءاً من الفتح فقد استحق ذلك عن جدارة فائقة جزاء لمجاهداته ولكل مجتهد نصيب ، على ان الفيض الالهى منحة من الله لمن شاء من عباده ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب .

وفي هذا الكشف اسرار قد ترق وتثق واحيانا تفيض على اللسان رغماً ولكنها تاتي محبة بالرموز وكما لاغى اصحابها من المعارضات والانتكار لانهم تحدثوا عما لا تدركه العقول ، ولذلك صرح ابن عربي في كتابه هذا بان عقيدته هذه هي عقيدة العوام التي اشرت اليها بالعبرة التي استشهدت بها مختصرة من كلامه ، وهذه

العقيدة هي عقيدة الذين سلمت عقائدهم لأنهم تلقوها من ظاهر الكتاب العزيز ، وهو لذلك يدعو الى عدم تعلم علم الكلام الا لأفراد قلائل يقصد ردع الخصوم ودفع الشبه ، ويقول في حق علماء الكلام : انهم رضى الله عنهم اجتهدوا وخيرا تصدوا وان كان الذى تركوه أوجب عليهم من الذى شغلوا نفوسهم به .

وعقيدة الخاصة وان كانت مطابقة لعقيدة العوام الا ان الكشف والالهام والفتح يقويها ويؤكدما فهي ان من عين اليقين ، وما راء كمن سمعا ، وشتان بين من يسمع ويقلد وبين من يعاين ويشاهد . والمشاهدة تزيد المشاهد بياضا وإيمانا وتعلوه عقيدة وبرهانا . وفي هذا يقول الغزالي :

**فكان ما كان مما لست أذكره فقلن خيرا ولا تسال عن الخبر**

ويقول ابن عربي في ذلك : وأما التصريح بعقيدة الخاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض ولكن جئت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة لكنها متفرقة ، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف قدرها ويميزها فاتها العلم الحق .

والعلوم في رايه على ثلاث مراتب : علم العقل وهو كل علم لك ضرورة أو عقيب نظر ، وعلم الأحوال ولا سبيل اليه الا بالتوق كالعلم بحلاوة العسل وحرارة الصبر . وعلم الأسرار وهو العلم الذى فوق طور العقل ، وهو علم نقت روح القدس في الروح ، ويختص به النبي والولي .

ان علوم الأسرار تلك هي التى يشير اليها ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : عند تفسير قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما » : لو ذكرت تفسيره لرجعتموني ، وفي رواية ألقمت انى كافر ، ويشبهه قول الرضى :

**يارب جوهر علم لو ابوح به لقبيل لى انت ممن يعبد الوثنا  
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا**

وقد اعتذر ابن عربي عن نفسه وعن غيره من علماء الصوفية الذين غلبتهم أحوالهم فباحوا ببعض الأسرار كما اعتذر أيضا عن انكر عليهم بقوله : « وينبغى للعاقل العارف ان لا يأخذ عليهم فان في قصة موسى مع الخضر منسوجة لهم وحجة للطائفتين ، وان كان انكار موسى عن نسيان لشروطه ولتعديل الله آياه ، وبهذه القصة عينها نحتج على المنكرين ولكنه لا سبيل الى خصامهم ، ولكن نقول كما قال العبد الصالح : « هذا فراق بينى وبينك » .

ان علم الأسرار عزيز وصعب المثال ومن خصائصه ان العبارة لا تستطيع ان تحتويه ، بل اذا أخذته سمع واعتاص على الأفهام ومن هنا لجأ الصوفية الى الرمز ، بخلاف العلم النظري فان العبارة كلما بسطته حسن وفهم معناه أو قرب عند السامع الفهم .

وبعد ، فان هذا الكتاب كما يقول الدكتور عثمان يحيى أحد روائع الفكر الانساني وأثر فريد في الدراسات الصوفية عامة والاسلامية خاصة ، خلاصة نتاج الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ، وما أغزته . ولم يتل منا بعد حظه من الدرس والبحث على به في الماضي عناية ملحوظة وانتشر في الشرق والمغرب بواسطة سلسلة متصلة الأساتيد ، وشرح وعلق عليه ولخصت أجزاء مختلفة منه ، وترجمت بعض أجزائه الى الفارسية والتركية .

وليس في وسعي - لعجزى - تلخيص الكتاب وبخاصة في دراسة قصيرة كهذه وحسبى ان كنت في هذه العجالة واحدا من الدالين اليه الناصحين بالتوفر على قراءته ودراسته فهو كثر دفين كما قال العلماء الذين عرفوا حقه ، ولو قرأه الناقصون عليه بأخلاص



لغيروا رأيهم ، وادركوا قيمة ما فيه من جواهر فريدة ، ويكفى أن يكون مؤلفه قد لفته للدلالة على الله وهل هناك أشرف من هذا الغرض واسمى من هذا الهدف ؟

## ٢ - فصوص الحكم :

يعد هذا الكتاب من أشهر الكتب التي كان لها أثر في إذاعة مكانة الشيخ الأكبر ، نظرا لما يدل عليه من أخبار عن حقائق الأنبياء السابقين وعددهم سبعة وعشرون نبيا هم : آدم ، وشيث ، ونوح ، وإدريس ، وإبراهيم ، وإسحاق ، وإسماعيل ، ويعقوب ، ويوسف ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، والعزير ، وعيسى ، وسليمان ، وداد ، ويونس ، وأيوب ، ويحيى ، وزكريا ، والياس ، ولقمان ، وموسى ، وهارون ، وخالد بن سنان ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وقد ألف ابن عربي هذا الكتاب في دمشق عقب اتخاذها دار إقامة له ، ويقول في مقدمة كتابه : « أما بعد فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أدبتها من العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وببعدة صلى الله عليه وسلم كتاب ، فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم ، خذ وأخرج به إلى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر منا ، كما أمرنا فحقت الأمانة واخلصت التهمة ، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما عده لي الرسول من غير زيادة أو نقصان ، وسألت الله أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وأن يخصني من جميع ما يرقمه بئاني وينطق به لساني وينطوي جاني باللقاء السويحي والنقت الروحي في الروح النفسى بالتأييد الاعتصامي ، حتى أكون مترجما لا متحكما ، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التدريس ، المنزه عن الأغراض النفسية التي يدخلها

التلبيس ، وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائي قد أجاب ندائي ، فما ألقى إلا ما يلقي إلي ، ولا أنزل من هذا المسطور إلا ما ينزل به علي ، ولست بنبي ولا رسول ولكني وارث وآخري حارث » .

## معنى كلمة الفص :

وقد استعار كلمة الفص للإنسان الذي يمثل الحقيقة بالتسوية لبقية أنواع العالم كما يمثل نقش الفص في الخاتم حقيقة الخاتم . فكان العالم خاتم فسه الإنسان ، وهذا يبين أفضلية الإنسان على العالم ، ثم جعل الأنبياء قصوصا بالنسبة لأفراد الإنسان ، فكان الإنسان خاتم فسه الأنبياء .

وقد أشار القاشاني إلى هذه التسمية عند تعرضه لشرح أول قص من فصوص الحكم قائلا : « لما استعار الفص لنوع الإنسان وحقيقته المعبر عنه بأدم كان قلب كل إنسان عارف بالله كامل فصا هو محل حكمته المخصوصة به » كما أشار ابن عربي نفسه إلى سبب هذه التسمية عند حكمة آدم بقوله : « فهو ( أي آدم ) من العالم كفص الخاتم من الخاتم هو محل النقش والعلامة التي يختم الملك بها على خزانته » .

## الكتاب من علوم الأسرار :

وقد عمد الشيخ الأكبر كعادته في تأليفه إلى الإفاضة في الأسرار التي كوشف بها ، وتوصل إليها بناء على ذوقه وفهمه ، فإن العلم في نظره ثلاثة أنواع ، كما أشار إلى ذلك في كتاب الفتوحات ، هي علم العقل الذي يحدث بناء على النظر والتفكير والاستدلال ، وعلم الأحوال وسبيله الذوق ، وعلم الأسرار وهذا فوق طور العقل ، وطريقته ثقت الروح في الروح ، وهذا العلم

نوعان : نوع يدرك بالعقل والآخر على ضربين : ضرب يدرك بالذوق والثاني عن طريق الأخبار .

وهذا العلم الذي بث في كتابه فصوص الحكيم من النوع الثالث ، الذي فوق طور العقل وجاءه عن طريق نفث الروح في روعه كما أشار الى ذلك في مقدمة كتابه . ولذلك فقد أوجد هذا الكتاب صدى كبيرا بين طوائف الصوفية والفقهاء وعده كثير منهم معبرا عن رأى ابن عربى فيما أسند اليه من نظرية وحدة الوجود ، ولكن ينبغي التنبيه الى ما سبقته الاشارة اليه من هذه الوحدة ، التى لا يصح تفهمها على أساس اتحاد بين قديم وحديث أو حلول قديم في محدث ، فذلك الذى نبه الصوفية جميعهم وبخاصة الشيخ الأكبر على وجوب نفيه من الأذهان تماما لتعارضه مع جلال الذات الالهية القديمة المحيطة التى وسعت كل شيء ولم يسمعها شيء ، وأن وحدة الوجود التى يقصدونها انما هى اثبات الوجود الحقيقى لواجب الوجود وأما غيره من المحدثات فلا وجود له على سبيل الحقيقة مع الله تعالى .

وقد نبه شراح الفصوص جميعهم على وجوب مراعاة هذه الدقائق ، واقاضوا فيها وشرحوا مقصد الشيخ من عباراته الموهمة التى وردت في الكتاب من امثال قوله عن : نوح .

« فما انت هو . بل انت هو وتراه في عين في الأمور مسحرا ومقيدا » فان المقصود نفى المائلة من جهة وإثباتها من جهة ، نفيا من حيث أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وإثباتها من حيث الصفات التى يجب أن يتخلق بها الانسان في قوله عليه الصلاة والسلام تخلقوا باخلاق الله ، فالانسان له صفة السمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك . وهى صفات أثبتتها الله جل جلاله لنفسه وعلى هذا فينبغى مراعاة امثال هذه الاشارات

في كلام الشيخ الذى لا يقصد منه حلولا أو اتحادا . بل هى عبارات وارادة في احوال خاصة عبر بها عن مدلولات ذاقها وكوشف بها . وكان القصد من بثها هو الصعود بالفكر الانسانى الى مرتبة عليا ، تحته على بذل الجهد من ادراك معرفة نفسه التى هى سبيله الى معرفة ربه . ولذلك نسعه بوجه الأذهان الى التفكير في مدلولات الكلام لادراك ما يقصد ادراكا حقيقيا لا يتناقض مع مرامى الشرع ومقاصده :

فمن الله فاسمعوا	والى الله فارجعوا
فاذا ما سمعتم	ما اتيت به ففصوا
ثم بالفهم فصوا	مجمال القول واجمعوا
ثم منوا به على	طالبيه لا تمنعوا
هذه الرحمة التى	وسعتكم فوسعوا

#### مراقب الآتياء :

وقد أشار ابن عربى في كتاب الفصوص الى الآتياء على حسب مراتبهم ، فادم أراد الله أن يظهر به سره اليه ، وشيث وهو الواد الاول لآدم هو المظهر للفيض الالهي ، ونوح هو مظهر تنزيه الله عن كل نقص ، وادريس كذلك . ولذلك اضاف نوحا الى التسبيح وادريس الى التقديس . وابراهيم عليه السلام - كان في مرتبة التهميم ، وهو شدة التوكل والعشق لأن الحق تجلى له بجلال جماله فهام في ذلك الجمال المبرقع بالجلال ، وكان اسحق في مقام التحقق لأنه حقق رؤيا أبيه فيه بذبحه<sup>(١)</sup> . وخص اسماعيل بالحكمة العلية ، وغلبت الروحانية على يعقوب والنور على يوسف . وهكذا .

(١) ارایه في هذا أن النبيح اسحاق ، ولكن المعروف عند جمهور العلماء أن النبيح هو اسماعيل ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم: انا ابن النبيح .

وقد عد ابن عربى لقمان من الأنبياء ووصفه بأنه من أهل مقام الاحسان وذلك لأن الغالب على حاله عليه السلام الاحسان بالشهود العلمى والحكمة والتوحيد والاسلام في قوله تعالى « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » وقوله « وآتيناه لقمان الحكمة » والحكمة والاحسان اخوان لأن الاحسان فعل ما ينبغي والحكمة وضع الشيء في موضعه ، ويظهر ذلك في وصيته لابنه : يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم<sup>(١)</sup> وقد اختلف العلماء في شأن لقمان هل هو نبي او حكيم ، « وهو لقمان بن باعورا ، ابن أخت ايوب او ابن خالته ، وقيل : كان من اولاد ازر ، وعاش الف سنة ، وادرك داود عليه السلام واخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل بعثت داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له : لم ؟ فقال : الا اكتفى اذا كفت ؟ » واليسل : كان قاضيا في بني اسرائيل ، واكثر الاقاويل انه كان حكيما ولم يكن نبيا ، وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا ، وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة<sup>(٢)</sup> .

كما ذكر الشيخ الأكبر خبر النبي الذي اضاعه قومه وهو خالد بن سنان وكان مشبهه الصمدية ، وهو نبي لم يبعث ، واخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله عنه : هو نبي اضاعه قومه .

وكان من قصة خالد : انه كان قوى الهمة ، والغالب عليه شهود الاحدية ، وكان هو وقومه يسكنون بلاد عدن ، فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة فاهلكت الزرع والضرع ، فصمد اليه قومه على حسب ما اعتادوا منه في دفع الملمات ، حتى يدفع عنهم اذى تلك النار ، وكانوا مؤمنين بها فاخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه من

(١) شرح القاساني على تفسير الحكيم ص ٣٧٢ .

(٢) يشرف من المشاف ص ٢ س ٤٦٢ تفسير لقمان .

خلفها ويقول : يدا يدا ، حتى بردت النار ، فرجعت هاربة منه الى المغارة التي خرجت منها ، وهو يسوقها حتى ادخلها ، ثم قال لاولاده وقومه : اني ادخل المغارة خلف النار حتى اطلقها ، فامرهم ان يدعوه بعد ثلاثة ايام تامة ، فانهم ان نادوه قبل انقضاءها فهو يخرج ويموت وان صبروا خرج سالما وقد دفع عنهم مضرة النار ، فلما دخل صبروا يومين واستقرهم الشيطان فلم يصبروا تمام ثلاثة ايام ، فارتابوا انه هلك .

فصاحوا به فرجع عليه السلام من المغارة ويدها على راسه من الالم الذي اصابه من صياحهم ، فقال لهم : ضيعتموني واضعتم قولي وعهدي ، واخبرهم بموته وامرهم ان يقيروه ويرقبوه اربعين يوما ، فانه ياتيهم قطيع من الغنم يقدمها حمار ابتر مقطوع الذنب ، فاذا حازى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فانه يقوم ويخبرهم بجلية الامر بعد الموت عن شهود وروية ، فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما اخبرت به الرسل عليهم السلام .

ثم مات خالد ، فدفنوه ، فانتظروا مضي الأربعين يوما وورد قطيع الغنم فجاء القطيع كما ذكر يقدمه حمار ابتر ، فوقف حذاء قبره ، فهم مؤمنو قومه واولاده ان ينبشوا عليه كما امرهم ، حتى يخبرهم بصدق الانبياء والنبوات كلها ، فابى اكابر اولاده ، وقالوا : يكون علينا عارا عند العرب ان ينبش على ابينا فيقال فينا : اولاد المنبوش ، وتدعى بذلك ، فعملتهم الحمية الجاهلية على ذلك فضيعوا وصيته واضاعوه .

ثم بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت بنت خالد فقال لها صلى الله عليه وسلم ، مرحبا يا بنت نبي اضاعه قومه<sup>(١)</sup> .

(١) شرح القاساني على التفسير ص ٤٢٥ .

وقد وردت هذه القصصة في محاضرة الأبرار<sup>(١)</sup> وفي حياة الحيوان للدميري<sup>(٢)</sup> .

وختم الشيخ الأكبر فصوصه الحكيمية بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مسك الختام وهو ترتيب طبيعي لتتساقط الكتاب، ويوضح ابن عربي رايه في الحقيقة المحمدية على اعتبار انه صلى الله عليه وسلم في مقام الفردية ، لأنه اول التعينات وكان اول دليل على ربه فهو أوثى جوامع الكلم التي هي مصمميات آدم ، فقد علم الله آدم الأسماء ، علم محمدا حقيقة هذه الأسماء ومعانيها . وهذا هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : أعطيت جوامع الكلم . وقد أشعار الى هذه الحقيقة في مؤلفاته الأخرى : مثل الفتوحات المكية وشجرة الكون .

#### رأى العلماء في الكتاب :

هذا وقد ذكر الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في نفح الطيب أن العلماء اختلفوا فيما أورده فصوص الحكم ردا وقبولا ، فبعضهم أثنى عليه وتقبله بقبول حسن وشرحه ، ومن هؤلاء : ابن الزمكاني كمال الدين محمد بن علي الأنصاري الشافعي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، وشرحه أيضا المولى عبد الرحمن بن أحمد الجامي المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وشرحه غير هذين كثير ومنهم الشيخ عبد الرازق القاشاني وعلق على هذا الشرح الشيخ محمد الباروني .

وفي حياة الشيخ الأكبر قام تلميذه صدر الدين القونوي بشرح هذا الكتاب واستمرت بعد ذلك الشروح تتوالى ومن بينها الشروح

(١) ج ١ ص ٥٥ .

(٢) ج ٢ ص ٢٩٥ ط دار التحرير .

التي أشرنا اليها . وبذل في ذلك مجهودات وافرة تشهد بالمهارة وقوة الإدراك . وكانت هذه التفسيرات جميعها تتجه اتجاها سنيا لا يتعارض مع ظاهر الشريعة وفي ذلك شهادة لابن عربي بأنه لم يناقض مذهب أهل السنة . وأن كان البعض من كبار الصوفية المتشددين مثل القاري الهروي المتوفى سنة ١٠١٦ هـ . وكذلك الفتازاني المتوفى سنة ٧٩١ هـ والشيخ إبراهيم محمد الحلبي الخطيب بجوامع السلطان محمد خان المتوفى سنة ٩٥٦ هـ عارضوا ابن عربي في آرائه وألف بعضهم كتباً ترد على الفصوص .

وقد ترجمت ابواب الفصوص ترجمة موجزة الى الهندية ونشرت في مدينة موراس سنة ١٩٢٩م<sup>(١)</sup> .

وقد تأثر كثير من الصوفية بأراء ابن عربي في كتابه الفصوص وبخاصة في فكرة الحقيقة المحمدية التي سرعان ما اتجه اليها المادحون والشعراء والأدياء في قصائدهم وفي صيغ صلواتهم التي يمدحون فيها النبي ويصلون عليه .

ولعل البدوي وهو يكاد أن يكون معاصرا لابن عربي قد تحدث هذا النحو فقد أثرت عنه هذه الصيغة « اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد شجرة الأصل النورية ، ولعة الفيضة الرحمانية ، وأفضل الخليقة الانسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية والربطة العلية . من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه واليه »<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن عربي ص ٦٨ .

(٢) فتح الرسول : صلوات للمعرقى ١ .

ويبدو أن ابن عربي ليس أول قائل بهذه الفكرة فقد سبقه إليها الحلاج وأثر عن ابن مشيس استاذ الشاذلي المعاصر لابن عربي هذه الصلاة :

« اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلق الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم قاعجن الخلائق ، وله تضاملت الفهوم غلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، قرياض الملوكوت يزهو جماله موقنة ، وحياض الجبروت يفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء الا وهو به منوط ، اذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - المتوسط ، صلاة تليق بك منك اليه كما هو أهله ، اللهم انه سررك الجامع الدال عليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، اللهم الحقني بنسبه وحققني بحسبه ، وعرفني آياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، واكرع بها من موارد الفضل ، واحملني على سبيله الى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك واغفر لي على الباطل فامعنه ، وزج بي بحار الأهدية ، وأنشئني من أحوال التوحيد وأغرقتني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس الا بها ، (١) »

ومن صلوات سيدي أحمد بن إدريس التي تظهر فيها فكرة الحقيقة المحمدية وأشحة قوله : « اللهم صل على طامة الحقائق الوجودية الكبرى ، وسر الخلوة الالهية ليلة الاسرا تاج الملكة الالهية ، ينبوع الحقائق الوجودية ، بصر الوجود وسر بصيرة الشهود ، حق الحقيقة العينية وهوية المشاهد الغيبية »

قال شارح الصلوات محمد بهاء الدين البيطار : لا يخفى أن الحقيقة المحمدية أول التنزلات من الطمس الذاتي الذي لا يعبر عنه بعبارة ولا يرتقى اليه بأشارة .. وإن كانت هناك عبارة تشير اليه

(١) فتح الرسول : صلوات لغيرني |

فهي ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله نور نبك يا جابر ، وكنت نبيا وآدم بين الماء والطين »

لقد كانت بشرية النبي صلى الله عليه وسلم نورا محضا حتى لقد ورد عنه قوله : اني لأراكم من وراء ظهري ، وكان نور المصطفى صلى الله عليه وسلم هو المعنى بروح الله المنفوخ في آدم حيث يقول الله تعالى ( ونفخت فيه من روحي ) وقد أشار الى ذلك المعنى سيدي علي وفا قدس الله سره :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد  
أو لو رأى النمرود باهر حسنه عبد الجليل مع الخليل وما مجد

ولعله يقصد بالطمس الذاتي ما ورد في الأثر القدسي : كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفوني »

أما طامة الحقائق الكبرى فهي تشير الى قوله تعالى :

« وما زأغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

يعنى رأى حقيقته التي هي طامة الحقائق فهي آية ربه الكبرى ، إذ لم يكن أكبر منها ولا أشمن ولا أجمع فما زأغ بصره صلى الله عليه وسلم وما طغى »

أما المقصود بالخلوة الالهية فهو ما كوشف به النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء من معرفة حقيقة نفسه ، تلك الحقيقة التي ظهرت في اقتداء النبيين عليهم السلام به في صلاة جامعة ، فهو امامهم وهم الناثبون عنه في تبليغ دعوتهم الى أممهم ، فإن الدين عند الله هو الاسلام ، ولذلك قال بعضهم في ذلك :

كل النبيين والرسل الكرام أتوا  
فهو الرسول الى كل الخلائق في كل العصور وثابت عنه افواه

واقد ظهر ذلك واضحا في قوله تعالى : «واذ اخذ الله ميثاق  
النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم  
لتؤمنن به ولتنصرنه قال اقررتم واخذتم على ذلكم اصري قالوا  
اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين » .

## خاتمة

وبعد ، فقد تتبعنا خطوات هذه الشخصية العظيمة التي تركت  
اثارها واضحة في كل مكان حطت رحالها فيه .

وهي شخصية • تحتاج الى افاضة اكثر في عرض مختلف  
الجوانب التي ذكرت والتي لم تذكر •

لقد كانت حياة الشيخ الأكبر سلسلة متواصلة من العمل  
والسعي والبحث والمعرفة والتجوال ، لقد انار الله بصيرته فذاق  
وكشف وشاهد ووصل الى مكانة في المعرفة اطلق عليه من اجلها :  
سلطان العارفين • والعارف فسرده هو بانه من اشعر قلبه الهيبه  
والمسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق • وفسرده أبو العباس  
المرسي بقوله : العارف لا دنيا له ، لأن دنياه لأخوته وأخوته لربه •

وكانت حياة • ابن عربي • تصديقا لمهذين التفسيرين • فهو لم  
تصرفه علاقة عن ربه ، ولم تكن له دنيا لأنه تركها لأخوته •

لقد كانت غايته المعرفة ، ومنذ نعومة أظفاره وهو مجد في سبيل  
هذه الغاية هجر من اجلها كل لذة ، واستعذب كل غناء ، وركب  
كل صعب •

لقد رأينا كيف «سويت اليه سهام اللام وكيف اعترضت طريقه  
المصاعب فلم يثنه ذلك عن غايته ، وهكذا كانت حياته حافلة بالجهاد

الأكبر . حتى تحقق بمختلف المقامات التي بناها بالزهد العملي وانتهى بها إلى مقام المعرفة وهو أعلى مقامات الوصول .

لقد افاض سلطان العارفين في أسرار المعرفة وتحدث عن حقائق تركت صداها العميق في أفاق الفكر الإسلامي وأبرز للتصوف مفاهيمه العليا في تواجبه الأخلاقية والنفسية والروحية ، ولذلك يعده الدكتور مصطفى حلمي من أوقر المسلمين حظا من التصوف ويقول في ذلك « ولعل محيي الدين بن عربي قد أظهرنا على اختلاف العناصر الالهية والانسانية والكونية واتساقها في كثير من مصنفاته كما يقول : وليس من شك في أن ما يعرض له ابن عربي في مصنفاته يكفي لإظهار حقيقة التصوف الإسلامي وأنه ليس مجرد أشواق وأذواق ولا مجرد رياضات ومجاهدات ولا مجرد أحوال وأفعال وإنما هو بعد هذا كله فلسفة الـهية وانسانية وكونية وأن هذه الفلسفة بخصائصها الإسلامية الخالصة هي معقد الطرافة ومناط الروعة فيما خلف ابن عربي وأشباهه من صوفية المسلمين (١) » .

أن حياة الشيخ سلطان العارفين التي تالقت في أفاق الشرق الإسلامي على مدى ثمانين عاما ليست حياة شخص عاش هذه الحقبة من الزمن ثم راح . ولكنها حياة بدأت ومازال أثرها حيا باقيا بما خلفته هذه الشخصية من مناقب وآثار ، ومعارف تحيا عليها العقول والقلوب وتفتت منها النفوس والأرواح . وتحلق في سمائها الخواطر والأذهان ٢

رحم الله « ابن عربي » ورضى الله عنه ٢

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين ٢

عبد الحفيظ فرغلي القرنى

(١) مجلة منبر الإسلام جمانى الآخرة ١٣٨١ هـ .

## المصادر

- ١ - الفصوص الحكية ... لابن عربي
- ٢ - ذخائر الأملال شرح ترجمان الاشواق ... لابن عربي
- ٣ - محاضرة الأبرار ومسامرة الأغيار ... لابن عربي
- ٤ - الأمر الحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من الشروط ... لابن عربي
- ٥ - شجرة الكون ... لابن عربي
- ٦ - مواقع النجوم ... لابن عربي
- ٧ - شرح القاشاني على فصوص الحكم ... عبد الرزاق القشاني
- ٨ - الطبقات الكبرى ... الشعراني
- ٩ - البواقيت والجواهر ... الشعراني
- ١٠ - التجريب الأحمر ... الشعراني
- ١١ - ابن عربي حياته ومذهبه ... أسير بلايوس ترجمة د. عبد الرحمن بلقوى
- ١٢ - شذرات الذهب ... لابن المصدا

- ١٣ - الشعر الأندلسي ... .. ترجمة د. حسين مؤنس
- ١٤ - نفع الطيب ... .. للمعري - تحقيق أحمد الرفاعي
- ١٥ - المقرب في حلي المغرب ... .. تحقيق شعوي سيف
- ١٦ - وفيات الأعيان ... .. لابن خلكان
- ١٧ - ابن الفارض سلطان العاشقين د. محمد مصطفى حلمي
- ١٨ - الصب الإلهي في التصوف الإسلامي ... .. د. محمد مصطفى حلمي
- ١٩ - التصوف في الشعر العربي د. عبد الحكيم حسان
- ٢٠ - الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري د. علي صافي حسين
- ٢١ - بين التصوف والأدب ... .. محمد إبراهيم الجبري
- ٢٢ - أبو الحسن الشاذلي ... .. د. عبد الحليم محمود
- ٢٣ - في الأدب الأندلسي ... .. د. جودت الركابي
- ٢٤ - رابطة العنودية والحياة الروحية في الإسلام ... .. طه عبد الباقي سرور
- ٢٥ - اعلام التصوف الإسلامي ... .. طه عبد الباقي سرور
- ٢٦ - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ... .. د. زكي ميلود
- ٢٧ - ابن مطهر الله السكندري وتصوفه ... .. د. أبو الوفا التفتازاني
- ٢٨ - الإنسان الكامل ... .. عبد الكريم الجبالي
- ٢٩ - شرح الرندي على حكم ابن مطهر الله ... .. لابن عباد الرندي

- ٣٠ - إيقاظ الهمم على شرح الحكم لابن عجيبة الحسني
- ٣١ - التصوف عند المستشرقين د. أحمد الشرباصي
- ٣٢ - وحى القلم ... .. الرافعي
- ٣٣ - تاريخ الأدب العربي ... .. لبروكلمان
- ٣٤ - التصوف على مذهب أهل التصوف ... .. للتكلافازي
- ٣٥ - مطهرة النفوس وروحي القلوب المستطاب ... .. للشيخ حسن رشوان
- ٣٦ - الرسالة القشيرية ... .. للقشيري
- ٣٧ - حياة الحيوان الكبرى ... .. للدميري
- ٣٨ - فتح الرسول ... .. علوت للعريفي
- ٣٩ - تفسير الكشف للإسماعيلي محمد بها الدين البيطار
- ٤٠ - شرح الصلوات الإلهية ... ..
- ٤١ - دائرة المعارف الإسلامية ... ..
- ٤٢ - دائرة المعارف البريطانية ... ..
- ٤٣ - دائرة معارف البستاني ... ..
- ٤٤ - دائرة معارف الشهاب ... ..
- ٤٥ - القوسومة العربية المبصرة ... ..
- ٤٦ - مجلة منير الإسلام ... ..



## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الأولى
٩	مقدمة الطبعة الثانية
١٥	البيئة والعصر
٢٢	نسبه ومولده ونشأته
٣١	إقباله على طلب العلم ، وشيوخه في طلبه
٤٣	سلوكه الطريق الصوفي ورحلاته في ذلك
٧٩	إخلاقه
٨٧	ابن عربي الأديب
١١١	ابن عربي الصوفي
١٢٧	مجاهدة وانواق ومعارف
١٥٥	ابن عربي بين انتصاره وخصومه
١٧٥	أثار ابن عربي
٢٠٥	خاتمة
٢٠٧	المصادر